فلسطين

أمام المثقف العربي

بقلم أديب اللجمي

خمسون عاماً مضت على صدور « وعد بلفور » حين حوّلت بريطانيا نفسها ، وكانت ماتزال في حرب غير معروفة النتائج ، ضد ألمانيا ، ان تلتزم بمنح يهود العالم « وطناً قومياً لهم »، مقابل ان يقدّم لها اليهود مختلف انواع العون المالي والتقني والعسكري وغيره ، كي تكسب الحرب ضد الالمـــان . وفي الوقت نفسه كانت بريطانيا ـ ذاتها ـ تلتزم تجاه العرب بأن تترك لهم حقهم في أن ارسوا سيادتهم واستقلالهم على أرضهم ومجتمعهم ، بشرط ان ينصروها في حربها ضد الاتراك ، حلفاء المـــانيا آنذاك . وفي الوقت نفسه ، كانت بريطانيا ـ اياها ـ

تتفق سراً مع فرنسا على اقتسام البلاد العربية، وبالضبط الشرق العربي: فلسطين، سورية، لبنان، العراق.

والذي حدث، هو أن بريطانيا وفت بوعدها لحاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، فأقامت الوطن القومي اليهودي في فلسطين، كما وفت بالتزامها السري مع نفسها ومع فرنسا، فخصت نفسها باستعمار فلسطين والعراق، وتركت لفرنسا استعمار سورية ولبنان، وكان اسم الاستعمار آنذاك انتداباً. أما وعدها باحترام استقلال البلاد العربية وسيادتها فكان امراً آخر. وقامت عصبة الأمم، لا لتصون الحق والسلام، ولا لتنهض بالشعوب المغلوبة على أمرها، فتساعد على تحررها، بل لتكرس بالخاتم الدولي استعمار الغرب لمناطق وشعوب من العالم لم تكن واقعة بعد في قيده. وبدا واضحاً فيما بعد، وبخاصة في هذه السنوات الأخيرة، ان عصبة الأمم كانت أماً شرعية لمنظمة الامم المتحدة: مهمة كل منها تبرير تسلط الاقوياء على الضعفاء، وطأطأة الرأس أمام العابثين بحقوق البشر، المناهضين لكل تطلع لدى الشعوب الى حياة الحرية والكفاية.

ولم يكن حال البلاد العربية الأخرى أفضل من حال سورية والعراق وفلسطين. فمصر محتلة منذ سنة ١٨٨٢، والسودان منذ ١٨٩٨ وتونس قبلها أي في ١٨٨١؛ أما الجزائر فقد دخلتها فرنسا منذ ١٨٣٠، والمغرب سنة ١٩١٢. وسقطت ليبيا في يد ايطاليا سنة ١٩١٢ أيضاً.

كانت تلك فترة من اقتم الفترات التي عرفها الوطن العربي: استعمار غربي كالأخطبوط مطبق عليه من كل ناحية، واجتياح صهيوني لفلسطين بتواطؤ مكشوف من بريطانيا، دولة الانتداب. ولم تكن الصهيونية لتنتظر نهاية الحرب العالمية الأولى وانتصار بريطانيا حتى تبدأ العمل. كان نشاطها أقدم من ذلك. فلقد قامت كمنظمة عالمية في قلب القرن التاسع عشر، غايتها المباشرة والاكثر

أهمية ، احتلال فلسطين وتهويدها ، وتشريد شعبها العربي . ولكن ثمة أهدافاً أخرى لها ، ففي مؤتمر بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ حدد هرتزل مستويات عديدة لنشاط المنظمة الصهيونية . وفي أثناء المؤتمر ذاته داهمت الشرطة الروسية القيصرية تجمعاً يهودياً ، خرجت منه بمخطط غير معروف من قبـــل ، اسمه « بروتوكولات حكماء صهيون » . والغريب أن أمر هذه البروتوكولات ظلّ خافياً على العالم كله تقريباً حتى سنة ١٩١٧ ، سنة وعد بلفور ، إذ كان هذا أول اشارة واضحة الى المؤامرة على فلسطين العربية ؛ فقد أعلن الوعد ، كما قلنا ، جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود ، مثلما نصّ على ذلك صكّ « البروتوكولات » . واعتبرت هذه أن من أولى مهمات اليهودية العالمية أن تعمل على اقامة الوطن اليهودي القومي في « أرض الميعاد » الممتدة من النيل الى الفرات .

هكذا أخذت جماعات اليهود تدخل الى فلسطين ، قادمة من أوروبا وروسيا القيصرية ، قبل وعد بلفور . كانت الصهيونية العالمية تتحرك بمهارة كبيرة ، يدعمها الذهب وشراء الضمائر والأقلام ، بل شراء كثير من حكام أوروبا وقادتها ، ثم حكام أمريكا فيما بعد ؛ وأنشأت البنوك لتكون في خدمة تيسير هجرة اليهود الى فلسطين . وكانت تتصيد فرص حدوث الأزمات والحروب لتدعم الدولة التي تتعهد بنصرة القضية الصهيونية . وكمثال على ذلك عرض نابليون بونابرت سنة ١٧٩٩ على اليهود أن يساعدهم على أن تكون فلسطين الوطن القومي لهم ، مقابل أن يساعدوه بنفوذهم في حملته على الشرق .

* * *

وحين خصت بريطانيا نفسها بالانتداب على فلسطين سنة ١٩٢٠ ، بموجب معاهدة سان ريمو ، كان من أول أغراضها في ذلك خدمة الصهيونية والبرّ بما وعدتها به . وحدث ذلك بسرعة غير منتظرة . فقد عينت بريطانيا أول مندوب

سام لها على فلسطين اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل الذي استقبله اليهود بالهتاف: « أهلاً بأمير اسرائيل الأول» وبدأ فور وصوله بترجمة وعد بلفور الى افعال، إذ قرر :

– اعتبار اللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين كاللغة العربية والانجليزية .

– السماح للوكالة اليهودية بادخال ١٥٠٠٠٠ يهودي كل عام الى فلسطين .

وأخذت الأحداث تتعاقب . وكان واضحاً جلياً منذ مطلع القرن العشرين أن العرب مقبلون على خوض معركة مع الصهيونية ، قد تقرر مصيرهم الى مستقبل بعيد جداً . وكان واضحاً بيناً ، منذ ممارسة بريطانيا انتدابها على فلسطين ، وفتحها موانىء هذه الأرض العربية في وجه القادمين اليهود ، أن المنظمة الصهيونية العالمية تبغي احتلال بلاد العرب ، وإقامة شيء آخر فيها أكثر من وطن قومي ، يعيش فيه اليهود مجتمعين مع العرب حياة سلام وتفاهم ، كما كانت الحال فعلاً بين العرب واليهود الذين كانوا يعيشون كمواطنين في سائر البلاد العربية الأخرى . كان هدف الصهيونية العالمية إقامة الدولة الصهيونية في قلب الوطن العربي ، لا في أفريقيا ، ولا في مدغشقر ، ولا في البرازيل أو أي بلد من أمريكا اللاتينية . وكان عليها أن تبدأ بفلسطين ، وأن تمتد بعد ذلك الى أجزاء أخرى من الأرض العربية ؛ وفي اثناء امتدادها وتوسعها كان عليها أن تطرد العرب من مدنهم وقراهم ، وأن تهجرهم من بيوتهم ، وأن تحوّل من يبقى منهم تحت رحمتها الى بشر من الدرجة الثانية أو الثالثة ، فتمارس بحقهم جميع أنواع التميز والاضطهاد والإذلال .

كان كل يوم يمرّ على فلسطين بين ١٩٢٠ و ١٩٤٨ يحمل معه اغتصاباً صهيونياً جديداً ، وتشريداً جديداً لمواطنين عرب ، وخطوة جديدة في تثبيت الكيان الصهيوني واقتلاع الوجود العربي من جذوره .

وبعد أن نضجت « الطبخة » تماماً، كرّستها منظمة الأمم المتحـــدة بين كتبها ، فأقرت بأغلبية ٣٢ دولة ضد ١٣ وامتناع ١٠ دول عن التصويت ، قيام « دولة اسرائيل » في قطعة محددة من فلسطين . كان ذلك في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ .

بدأت « الدولة » صغيرة ، ولكنها توسعت بعد شهور قليلة من قيامها . وأخذت تتدفق عليها المعونات من جميع بلاد العالم ، بحيث كانت تبلغ في كل سنة مئات الملايين من الدولارات (على سبيل المثال : ٤٣٢ مليون دولار في سنة ١٩٦٠ ، ٤٩٣ مليون في سنة ١٩٦١ ، ٥٤٣ مليون في سنة ١٩٦٢ ، ٥٢٤ مليون في سنة ١٩٦٣ ، ٥٦٥ مليون في سنة ١٩٦٤[1]) . هذا في الوقت الذي كانت فيه مئات الألوف من اللاجئين يئنون من البرد والجوع والمرض ، وكانت وكالة الغوث التابعة لمنظمة الأمم المتحدة لا تجد المال الكافي لتؤمن لهم بعض قوتهم لأن الولايات المتحـدة والغرب عامة كانت تفضل تقديم الدولارات بمئات الملايين الى الذين شردوا العرب.

اثناء ذلك كانت اسرائيل تستمر تلعب اللعبة المزدوجة : أمام الرأي العام العالمي هي مهددة بالفناء من قبل العرب، لا تنشد اكثر من مجرد العيش بسلام في حدودها . وفي داخل الأرض المغتصبة هي مبيدة ومدمرة لكل معالم الحياة العربية ، ومتأهبة دوماً لابتلاع مناطق عربية أخرى . وكان عليها في سبيل ذلك أن تتحول كلها الى ثكنة عسكرية كبيرة ، وأن تصبح مستودعاً هائـــلاً للسلاح ، وان يُعدّ جميع ابنائها ليكونوا جيش مواصلة اجتياح الأرض العربية. كانت هي التي توّقت للمعارك مع العرب ، ولم يحدث أن جرى العكس حتى

---

(١) هذه الارقام مأخوذة من التقرير السنوي لبنك اسرائيل المنشور سنة ١٩٦٦ وقد أثبتها كتاب : بسام ابو غزالة : التخطيط في اسرائيل – منشورات منظمة التحرير الفلسطينية – رقم ١٨ – سنة ١٩٦٧ .

الآن . وفي مقابلة طويلة أجرتها مجلة ريالتي Réalités الفرنسية مع آبا ايبان وزير خارجية اسرائيل (وقدنشرت في عدد كانون الاول ١٩٦٦ من المجلة المذكورة)(١) قال آبا ايبان : « ان العرب كانوا يطالبون حتى الآن بحدود سنة ١٩٤٨ ، وسيأتي وقت قريب جداً يطالبون فيه بحدود سنة ١٩٦٧ » . فاذا كان عدوان الخامس من حزيران الماضي قد وقع على ثلاثة بلاد عربية ، فهو لم يكن في الواقع وليد ظروف آنية ، بل كان فصلاً او حلقة من سلسلة مترابطة الاجزاء . ومرة اخرى تبرهن اسرائيل على انها قامت على التوسع والاجتياح ، وهي مازالت مستمرة فيه .

* * *

اننا ، في هذه السطور ، لا نأتي بجديد ، بل نسرد باختصار شديد نماذج من واقع العدوان الذي تسلطه الصهيونية ، منذ مطلع القرن العشرين ، على سلامة الأمة العربية ، بل على الوجود العربي ذاته فوق الارض العربية .

قد يقول قائل : ولكن اسرائيل اليوم أداة بيد الاستعمار والأمبريالية اللذين يستخدمانها لإجهاض الحركات التحررية العربية ، وانها ، لولاهما ، لم تكن لتقوم أصلاً في قلب الوطن العربي . واذا كان هذا صحيحاً ، فليس العكس اقل صحة منه . ان الصهيونية العالمية ، فيما يخص على الأقل اطماعها التوسعية في قلب الوطن العربي ، تسيّر الغرب كله في ركابها . بل لقد تمكنت حتى الآن من أن تحرك الغرب ، حكومات وشعوباً ، لتلبية مطالبها مثلما يحرك المنوم المغناطيسي مريده . ان المساعدات المالية وحدها التي تنالها اسرائيل من الغرب ، لم ينلها بلد في العالم ، بل وفي جميع مراحل التاريخ . لقد كان مفروضاً بهذه المساعدات ان تجعل اسرائيل تعيش برخاء مابعده رخاء ، ودون ان يقوم أي فرد من أبنائها بأي عمل . ولكن هناك أطماعاً صهيونية يجب تحقيقها ، وهناك سياسة توسعية يجب تنفيذها ؛ وفي سبيل ذلك يجب ان تحصل اسرائيل على أحدث انواع الاسلحة ومن جميع المصادر ، وبصورة مستمرة ، بالمجان او بالقيمة . لم يكن الغرض من هذه

---

(١) ورد النص في كتاب : معركتنا العربية في مواجهة الاستعمار والصهيونية تأليف : عبدالكريم غلاب ، محمد العربي المساري ، عبدالجبار السحيمي – (سلسلة كتاب العلم) مطبعة الرسالة – المغرب ١٩٦٧ .

الاسلحة ان تحمي اسرائيل نفسها ؛ فالصهيونيون بالأصل جاءوا من مختلف آفاق العالم ، ليغزوا العرب في ديارهم ! وفي سبيل هذا الهدف ، كل شيء مشروع . واذا كان ثمة من لايزال يدغدغ الوهم رأسه في ان الغرض من اقامة اسرائيل هو حل مشكلة اليهود الذين تضطهدهم شعوب اوروبا، فلقد برهن الصهيونيون أنفسهم على كذب هذا الادعاء . ان جميع يهود أوروبا الغربية تقريباً لم يستجيبوا لنداء المنظمة الصهيونية ولم يهاجروا الى الارض المحتلة ، بل آثروا البقاء والعيش في اوطانهم الاصلية الفرنسية او الايطالية اوالهولندية (١) . أما يهود المشرق وافريقيا الذين تمكنت الصهيونية من تضليلهم والاتيان بهم الى فلسطين ، فيكفي ان يطلع الانسان على نمط الحياة السيئة التي يعيشونها في داخل اسرائيل ليتأكد من ان الصهيونية العالمية لاتتورع ، اذا اقتضى الأمر ، عن ان تضحي باليهود انفسهم لخدمة اغراضها الخاصة . ولقد كشفت وثائق كثيرة أن المنظمات الصهيونية نفسها في اوروبا تلجأ بين حين وآخر الى تنظيم عمليات قتل واغتيال لبعض اليهود كي تستمر في المتاجرة بما يسمى « اللاسامية » .

منذ خمسين سنة إذن ونحن نشهد « تصاعد » الحركة الصهيونية وخططها في تدمير الكيان القومي والهوية الأصلية للأمة العربية . ومما يلفت النظر أن المثقفين العرب ، كجماعة لا كأفراد ، لم يدركوا أبعاد هذا المد وأخطاره على وجود أمتهم . ولو أنهم أدركوه لكان موقفهم من توعية الجماهير العربية وتربيتها وتكوين وعيها القومي ، غير ماهو عليه حتى الآن . ان اسرائيل ليست « واقعاً استعمارياً » على حد تعبير مكسيم رودنسون وحسب ، بل هي بالنسبة العرب ، اكثر من ذلك . فالاستعمار مازال موجوداً في مناطق كثيرة من العالم في أفريقيا

---

(١) بلغ عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين حوالي ١١٩٠٠٠ شخص سنة ١٩٤٨ وحوالي ٢٤٠٠٠٠ سنة ١٩٤٩ ، بينما بلغ عددهم حوالي ٢٤٠٠٠ في سنة ١٩٦٠ ، وحوالي ٥٤٠٠٠ في سنة ١٩٦٤ – المصدر : المجموعة الاحصائية الاسرائيلية لسنة ١٩٦٥ – منشورة في كتاب : بسام أبو غزالة – التخطيط في اسرائيل .

وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وأسس النضال ضده معروفة أيضاً . ولكنّ اسرائيل، إضافة الى كونها أداة بيد الاستعمار الغربي، فانها، أولاً تتشبث بالبقاء كدولة فوق الأرض العربية . ثانياً ، تحاول في سبيل ذلك إبادة معالم الوجود العربي ذاته . ومن هنا توجب على المثقفين العرب ألا يكتفوا بإدراك أبعاد اسرائيل الاستعمارية والامبريالية وحسب ، بل عليهم أن يفتحوا أعينهم على ان القضية بالنسبة لأمتنا هي قضية بقاء أو اندثار . انني أتحدث عن المثقفين العرب ، ولا أعني فقط اولئك الذين يكتبون ويؤلفون وينظمون الشعر والنثر ويتحدثون فوق المنابر ومن وراء المذياع . ان المثقفين العرب هم جميع أولئـــك المسؤولين عن « صنع » المجتمع العربي والدولة العربية . انهم جميع اولئك الذين يتولون قيادة وتوجيه شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والفكرية في البلاد العربيـة .

جميعنا مسؤولون عن النظرة القصيرة التي فهمنا بها الصهيونية واسرائيـــل ، وإلا كيف نتصور أن يظل الوطن العربي في سنة ١٩٦٧ مثلما كان عليه في سنة ١٩٤٨ ، ممزقاً ، منفعلاً بالاحداث لا فاعلاً بها ، معانياً مصيره بدلاً من ان يكون صانعه . إن مواجهة اسرائيل لا يكفيها اعداد عسكري عربي متفرق او موحد ، وان يكن هذا الاعداد العسكري شرطاً لاسترداد الحق السليب . ولكن الخلاص من تهديد الصهيونية الدائم للوجود العربي لا يكون إلا ببناء جديد للمجتمع العربي . ان البُنى التي كانت صالحة أو مقبولة او مسكوتاً عنها ، حتى الآن ، تفتقر اليوم الى اعادة نظر جذرية . نحن بحاجة الى التساؤل الكبير عن كل ظاهرة من ظاهرات حياتنا القومية والاجتماعية والمادية والفكرية . واذا كان باستطاعتنا ان نبرهن على ان الخامس من حزيران الماضي هو بداية لهذا التساؤل الجذري في سبيل تكوين جديد للمجتمع العربي وفهم جديد لأهداف العرب تجاه انفسهم ، وتجاه اسرائيل والعالم ، فلاشك في ان المأساة التي خلفها عدوان الخامس من حزيران تكون قد اذنت دور الموقظ من سبات طويل آن له أن يتبدد .

للبحث العلمي

د. محمد شبير مكي

تطور البحث العلمي عبر التاريخ حيث بدأ بالجهد الفردي وبالوسائل الخاصة ،فاستطاع كشف كثير من النظريات والقوانين ، غير ان تلك الجهود كانت صغيرة متفرقة فلما توفرت فيها سمات الترابط والتعاون الكامل . ثم بدأ ظهور المجموعات الصغيرة في مخابر الكليات والمعاهد . فحققت اثر هذا الشكل من التعاون الكثير من الاكتشافات . الا انه حتى قبل اوائل القرن العشرين لم تبذل الاجهود قليلة للتنسيق والاستفادة العملية من نتائج الابحاث . فان اكتشاف

فراداي عام ١٨٣١ للكهرباء لم يقد الى انتاج مولدات الكهرباء الا بعد نصف قرن تقريباً . وعند سيطرة رأس المال على وسائل الانتاج ، اتجهت المؤسسات الكبرى لاحتضان العلماء وتوفير الامكانات لهم ، فكانت هذه هي مرحلة العلم الموجه بحافز الربح والاستثمار . الا ان تحقيق الربح لبعض الافراد أخل بميزان النشاط العلمي في مختلف فروعه فلم تجد الحكومات مفرا ــ قبل وبعد الحرب العالمية الثانية حفظاً منها على أمنها وسلامتها وتقدم اقتصادها وصناعتها ودفاعاً عن علمائها ومؤسساتها ــ من ان تحتضن العلم ومؤسساته وتنفق في سبيله الكثير لتقدمه وازدهاره . هذا التبني دفع بالعلم الى آفاق جديدة ، آفاق الذرة والفضاء ، ولم يعد يتركز الاهتمام نحو الابحاث التي يبدو عليها احتمال الربح ، اذ قد ثبت ان المعرفة الاساسية التي نحصل عليها اليوم قد تؤدي في الغد لتطبيقات هامة غير متوقعة . والجدول التالي يظهر لنا الانفاق العام على الابحاث والتطوير ونسبتها من الانتاج القومي لبعض الدول المتقدمة علمياً ، مع عدد سكانها ، وما يصيب الفرد من انفاق على الابحاث .

الجدول رقم (١)

الانفاق على البحث والتطوير ــ الانتاج القومي لعام ١٩٦٢

	الولايات المتحدة	اوربا الغربية	بلجيكا	فرنسا	المانيا الغربية	هولندا	انكلترا
الانفاق على البحث والتطوير بملايين الدولارات	١٧٥٣١	٤٣٦٠	١٣٣	١١٠٨	١١٠٥	٢٣٩	١٧٧٥
نسبة الانفاق على البحث والتطوير من الدخل القومي	٣،١	—	١،٠	١،٥	١،٣	١،٨	٢،٢
النفوس بالملايين	١٨٧	١٧٦	٩	٤٧	٥٥	١٢	٥٢
مايصيب الفرد من الانفاق على البحث والتطوير بالدولار	٩٣،٧	٢٤،٨	١٤،٨	٢٣،٦	٢٠،١	٢٠،٣	٣٥،٥
الانتاج القومي بالعملة الوطنية بالملايين	٥٥٧٥٩٠	—	٦٤٦٢٠٠	٣٤٦٣٠٠	٣٥٤٥٠٠	٤٨٠٩٠	٢٨٥٦٦٠

غير ان التزايد المستمر في تكاليف الابحاث دعا الدول ، حتى المتقدمة منها في العلوم والغنية بالموارد ، الى ان تلجأ الى فكرة التعاون في بعض الميادين ؛ وذلك لقناعتها بأن امكاناتها المادية لا تستطيع ان تفي بمتطلبات اجراء هذه البحوث .

وهكذا نتيجة لهذه القناعة ثم اقراراً بهذا الواقع ، وقعت اتفاقية المجموعة الاوربية للطاقة الذرية عام ١٩٥٧ وذلك للقيام بالبحث العلمي في مضمار الطاقة الذرية واستعمالاتها السلمية . الا أن هذا التعاون في سبيل اقامة مؤسسات مشتركة لا يقف في الحقيقة عند حدود التعاون لتوفير الابحاث في ميدان الطاقة ، وانما يتجاوز ذلك ليقيم البنية الاساسية للتكامل الاوروبي في سبيل تحقيق وحدة اوروبا السياسية .

وهكذا في نطاق هذا التعاون استطاع علماء الدول الصغيرة نسبياً ان يدخلوا في مجالات أبحاث باهظة الكلفة كأبحاث الفضاء ، وفيزياء القدرة العالية ، والاستفادة من نتائج ابحاث عامة كأبحاث تخفيف الضجيج في الطائرات والمطارات وابحاث الطرق وتلافي الحوادث ، وازالة ملوحة مياه البحار . وبهذا يبدو واضحاً ان الدول الاوروبية لم تتخل عن البحث العلمي رغم القلة النسبية في مواردها اذا ما قورنت بموارد عمالقي البحث العلمي ، الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ، وكان سبيلها الى ذلك التعاون والاشتراك .

غير اننا اذا اردنا ، ونحن في معرض بحثنا هذا ، ان نحدد السبل التي تجري وفقها الابحاث العلمية لامكننا حصرها في ثلاثة سبل :

١ - **الابحاث الاقليمية الوطنية** : وتجري عادة في مراكز للبحوث وفي الجامعات وتتعلق بمواضيع نظرية ، أولها صفة تطبيقية . وقد اخذت الدول تركز الجهد الوطني نحو مراكز معينة للأبحاث لكل منها اختصاصها ، خشية من تبعثر

الجهد الواحد. وان اول وانجح هذه المؤسسات هي التي ظهرت في اليابان كمراكز الابحاث الالكترونية المجمعة ومخابر الفيزياء الصلبة .

٢ – **الابحاث الصناعية البحتة** : وهي التي تمولهـــا الصناعات وتجري في مصانعها او في مراكز تابعة لهـا الا أن التعاون الوثيق بين دور الصناعة والحكومة واهتمام الثانية بالاولى ودعمهـا ، خلق نوعا من المشاركة بحيث تساهم الصناعة في الدعم المادي لمراكز الابحاث القومية والجامعات وتبني البحاثين فيها بحيث اصبحت هذه المراكز تخدم الصناعة وتلبي رغباتها وتحل مشاكلها . وان اكثر الدول توفيقاً في هذا المضمار هي بريطانيا ، حيث احدثت فيها وزارة التكنولوجيا وهدفها توحيد وادخـــال الطرق التقنية الحديثة في الصناعات البريطانية وذلك ضمن مخطط اقتصادي وطني .

والجدول رقم (٢) يبين نسبة الانفاق على مختلف القطاعات الصناعية في الدول المتقدمة (انظر الصفحة رقم ١٥) .

٣ – **الابحاث الدولية** : وهي اما ان تكون ابحاثاً ذات نفع عام لا يمكن اجراؤها في دولة واحدة فالتعاون ضروري واساسي للمضي في هـــذا النوع من الابحاث ، كأبحاث البيئة وابحاث البحار ، وهذا التعاون قديم وقد أخذ يشمل الآن دولاً تتبع سياسات متباينة جداً ومتنافرة ايديولوجيا . وابرز هذا التعاون هو الاتفاق الأخير بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي للمشاركة في ابحاث الفضاء والمراكب الكونية . أو تكون الابحاث لموارد كبيرة جـــداً تصبح ازاءها المساهمة امراً ضرورياً لمتابعتها . مثال ذلك الابحاث الذرية وابحاث الفضاء . وفيما يلي جدول يبين بعض هذه المؤسسات الدولية وتكاليفها الباهظة ونسبة مساهمة الاعضاء فيها .

الجدول (٢)

توزيع الانفاق على الابحاث الصناعية والتطوير لعام ١٩٦٢

	الولايات المتحدة	بلجيكا ١٩٦١	فرنسا ١٩٦٣	المانيا ١٩٦٣	النروج	انكلترا	كندا
الطيران	٣٦٫٣		٢٣٫٤	—	—	٣٥٫٤	١٥٫٧
العربات	٧٫٤	٠٫٨	٣٫٥	١٩٫٢	٢٫٢	٣٫٠	١٫٥
الآليات	٨٫٢	٧٫٠	٤٫٦	—	٥٫٢	٧٫٣	٥٫٥
« الكهربائية	٢١٫٦	١٩٫٤	٢٤٫٦	—	٢٦٫٨	٢١٫٧	٢٢٫٣
الاجهزة	٣٫٩	—	—	٣٣٫٨	—	٢٫٣	١٫٠
الكيميائيات	١٢٫٦	٣٩٫٦	١٨٫٤	٣٢٫٩	٢٤٫٤	١١٫٦	٢٤٫٤
الفولاذ	٢٫٠	—	٣٫٤	—	—	٢٫٩	—
المعادن غير الحديدية	٠٫٦	١٣٫٣	٣٫٢	٦٫٦	٢٦٫٣	١٫٢	٦٤٫٢
الزجاج والفضار	١٫٠	—	١٫٨	٠٫٨	٣٫٢	١٫٣	—
المطاط	١٫١	—	—	١٫٠	٠٫٤	١٫٢	—
الورق	٠٫٦	—	٠٫٢	٠٫٦	٤٫٢	٠٫٩	٥٫٤
الغذائية	٠٫٩	٢٫٦	٠٫٥	٠٫٦	٢٫٧	١٫٩	—
آليات أخرى	٢٫٠	١٣٫٠	٧٫٤	١٫٩	٣٫٣	٣٫٤	—
النقل والقدرة	—	٣٫٣	١٠٫١	٠٫٦	—	٤٫٤	١٠٫٠
مختلفة	١٫٩	—	٠٫٩	٢٫٠	١٫٣	١٫٦	—
	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠

الجدول (٣)

لتمويل الابحاث الذرية والفضائية الدولية

اسم المؤسسة واختصاصها	رأسمالها بالدولار
الوكالة الدولية للطاقة الذرية (فينا – النمسا)	٩،٧٨٤،٥٠٠ يمولها صندوق هيئة الامم المتحدة
الوكالة الأوروبيــــة للقدرة النووية (باريس – فرنسا)	٥٢٧،٢٧٢
الشركة الاوروبية للتصنيع الكيميائي للوقود الذري مول (بلجيكا)	٣٥،٧٥٠،٠٠٠ موزعة على ٧١٥ سهماً بين الدول الاوروبية
مفاعل ماء ثقيل (هالدن ـ النروج)	٧،٧٣٩،٠٠٠
مفاعل تبريد غازي لدرجات مرتفعة من الحرارة (فنغريث بريطانيا)	٧٠،٠٠٠،٠٠٠
المنظمة الاوروبية للابحاث النووية (جنيف ـ سويسرا)	٢٥،٠٧٥،٠٠٠
المجموعة الاوروبية للابحاث النووية (بروكسل – بلجيكا)	١٣١،٥٨٩،٠٠٠
المنظمة الاوروبية لابحاث الفضاء (باريس – فرنسا)	٧٨،٠٠٠،٠٠٠ دولار للسنوات الثلاث الاول و ١٢٢،٠٠٠،٠٠٠ للسنوات الثلاث الثانية
المنظمة الاوروبية لتطوير قذف المركبات الفضائية (باريس – فرنسا)	١٩٦،٠٠٠،٠٠٠

ان نظرة الى التكاليف الباهظة لتمويل هذه المشاريع تفسر الضرورة التي حملت الدول الاوربية على التعاون والاشتراك فيها .وقد سبق وأثار هذا التزايد المستمر بالتكاليف بعض التساؤلات لدى السياسيين والاقتصاديين تتعلق بحدود

هذا الانفاق . الا ان النظرة الآن قد تغيرت عن السابق واصبح ينظر للبحث العلمي كأنه مرفق حيوي لاغنى عنه كمرفق المدارس والمستشفيات والطرق فليس لنفقاته نهاية كما انه ليس للمعرفة من نهاية . وان الخوف من ان تصبح الدولة متخلفة نتيجة تقصيرها بالانفاق على هذا المرفق يحدوها للتضحية والمساهمة مهما بلغ هذا الانفاق .

امام هذه الاهمية البالغة التي توليها الدول المتقدمة للبحث العلمي ألا يجدر بنا نحن العرب بعد ان عانينا النكسة الاخيرة بسبب تخلفنا العلمي ان نعيد النظر في مقودات حياتنا وان نبني مستقبلنا على أسس كفيلة بالوصول بنا لمستوى لايستطيع غيرنا أن يطمع بخيرات بلدنا وبأرضنا وباسترقاق شعوبنا . ان لدينا من الامكانات المادية مايمكن بها تذليل اكبر عقبة في سبيل التقدم العلمي والحضاري ، ولدينا من الوفرة البشرية والانفتاح على المدنية مايكفل لنا نجاحنا . فلا ينقصنا الا اقناع المسؤولين بهذه الضرورة الملحة ووضع خطة علمية صحيحة على مستوى اقليمي وعربي ولمدى بعيد ليصل بهذه الأمة الى حافة السلام والازدهار .

فمن الضروري اذن التفكير بانشاء منظمة للابحاث العربية تابعة لمنظمة الوحدة الاقتصادية أو الجامعة العربية ، هدفها وضع الأسس الكفيلة بتنشيط الابحاث الاقليمية مادياً وعلمياً والقيام باعباء الابحاث العلمية على مستوى الوطن العربي . ويمول صندوق هذه المنظمة بمساهمة الدول العربية بنسبة الدخل القومي لكل منها على ان لا يقل هذا الاشتراك عن ١ ٪ ويرأس هذه المنظمة وزراء التخطيط والبحث العلمي ويكون لها لجنة استشارية عليا مؤلفة من كبار خبراء التخطيط والبحث العلمي في العالم العربي . وهذه اللجنة هي التي تضع خطة العمل بعد أن تدرس من قبل لجان فرعية مختصة بالابحاث التي يراد التوسع فيها وتبقى هذه اللجان مسؤولة عن تنفيذ المشروعات بعد اقرارها واعتمادها .

فدور المنظمة في الابحاث الاقليمية هي اعطاء المشورة وتنسيق الابحاث والمساعدة الفنية والمادية اذا لزم الأمر ، ليكون في كل بلد عربي مراكز لبحوث تجري فيها ابحاث نظرية وتطبيقية تستمد العون من الجامعات القائمة ، وتقدم بالنتيجة الباحثين والعلماء وتخدم الصناعات المحلية وترفع مستوى التعليم والمعرفة .

اما الابحاث على نطاق الوطن العربي فتشمل الابحاث الهامة لاقتصاد الامة العربية والابحاث العسكرية وابحاث الفضاء والذرة .

فالابحاث الاقتصادية هي التي تساعد على تطوير الاقتصاد العربي وفق امكاناته وثرواته ، فلابد مثلاً من انشاء وحدات للبحوث في البتروكيميائيات والتعدين والمياه الجوفية والطاقة الشمسية والابحاث الذرية .

اما الابحاث العسكرية فيجب ان تعطى لها اهمية كبرى نظراً لوضع الامة العربية وتآلب قوى الاستعمار والعدوان ضدها مستعملة اشد الاسلحة فتكاً وتدميراً . وفيما يلي ، وعلى سبيل المثال ، جدول يبين الانفاق العام على الابحاث العسكرية في بعض الدول المتقدمة .

الجدول (٤)

الانفاق على الابحاث العسكرية والفضائية في بعض الدول المتقدمة

الدولة	السنة	الانفاق بملايين الدولارات	النسبة المئوية من الانتاج القومي
الولايات المتحدة	١٩٦٣/١٩٦٢	٩٠٧٥	١٫٦
بريطانيا	١٩٦٢/١٩٦١	٦٩٠	٠٫٩
فرانسا	١٩٦٢	٣٣٠	٠٫٥
المانيا الغربية	١٩٦٤	٢١٥	٠٫٢
كندا	١٩٦٤/١٩٦٣	٧٥	٠٫٢
بلجيكا	١٩٦٤	٦	٠٫١

وما دام هذا العصر هو عصر الفضاء والذرة ، وقوة الدول وأمنها يقاسان بما لها من تقدم في هذا المضمار ، فلا بد للأمة العربية وبواسطة منظمة الأبحاث أن ترمي القواعد الكفيلة لتهيئة العلماء واجراء البحوث للمساهمة في تقدم البشرية ، والاستعداد للرد بالمثل على التهديد بالاسلحة الذرية . فاقامة مفاعل ذري كبير في مصر هو ضرورة ملحة جدا . وتحويل ابحاث الصواريخ في القاعدة الجزائرية المنشأة لهذا الغرض من قبل فرنسا يكون جزءا من الابحاث العسكرية العربية في سبيل الدفاع والتحرير .

وان من أهم النتائج المباشرة لقيام هذه المنظمة هو عودة الكثيرين من العلماء والباحثين العرب الموجودين في الخارج للعمل في بلادهم والمساهمة في تطورها . وعلى المنظمة ان تزيل ما كان يعيق عودتهم بالسخاء المادي وبتأمين وسائل البحث والاستمرار فيها .

الا ان هذه الخطوات ، ان تم تنفيذها ، لابد أن تسير بجانبها سياسة جديدة في التوسع في التعليم وتطوره بشكل يلائم المتطلبات الجديـــدة . فعلى المدى البعيد سيتحكم بالابحاث العلمية استطاعة مؤسسات التعليم ، وكلاهما سيساهمان في التقدم الاقتصادي والاجتماعي . فصرف الأموال على التعليم يعطي للاقتصاد والمجتمع العناصر المطلوبة والكفاءات اللازمة للتطور . فخلال المؤتمر التعليمي الذي عقد في واشنطن عام ١٩٦١ اعطيت الحجج الكثيرة والمقنعة بأن التعليم هو خير توظيف للمال ، لأن الخطط الموضوعة للتطور الاقتصادي لا يمكن تحقيقها بدون زيادة في العلميين والفنيين . وان الجـــدول التالي يظهر العلميين المفرزين للابحاث في بعض الدول المتقدمة ونسبتهم الى السكان .

الجدول (٥)

الدولة	العلماء والمهندسون العاملون في الابحاث والتطوير × ١٠٠٠	مجموع العاملين في ميدان الابحاث والتطوير × ١٠٠٠	عدد النفوس بالملايين	عدد العاملين من سن ١٥ – ٦٤ بالملايين	عدد العاملين بالابحاث بين ١٠٠٠ من السكان
الولايات المتحدة	٤٣٥،٦	١،١٠٩،٥	١٨٦،٦	١١١،٢	٦،٢
أوروبا الغربية	١٤٧٥	٥١٨،٣	١٧٦،١	١١٣،٩	٢،٩
بلجيكا	٨،١	٢١،٠	٩،٢	٦،٠	٢،٣
فرنسا	٢٨،٠	١١١،٢	٤٧،٠	٢٩،١	٢،٤
المانيا الغربية	٤٠،١	١٤٢،٢	٥٤،٧	٣٦،٧	٢،٦
هولندا	١٢،٦	٣٢،٨	١١،٨	٧،٣	٢،٨
بريطانيا	٥٨،٧	٢١١،١	٥٣،٤	٣٤،٨	٤،٠
الاتحاد السوفييتي	٤١٦	١٠٣٩	٢٢٠،٠	١٤٢	٤،٧

ولابد من اعادة النظر في برامج التعليم في الجامعات والمعاهد والمدارس الاعدادية والثانوية فالبرامج التي تدرس الآن متأخرة خمسين سنة عما يجب أن تكون عليه . ويجب ان تكون الزيادة في العلميين والفنيين بشكل لا يطغى فيه الكم على حساب الكيف .

أما الابحاث الزراعية ، وهي موجودة تقريبا في كل الأقطار العربية ، فانها تحتاج الى شيء من التنسيق والتركيز . فلا بد لهذا من وجود مركز عربي تابع للمنظمة ، لتنسيق البحوث الزراعيـــة والسعي لدى الحكومات لاتباع سياسة زراعية متكاملة تعطي اكبر مردود لدعم الاقتصاد العربي .

لقد آن للدول العربية ان تخرج من عزلتها وتبعيتها ، باتباع طريق العلم والبحث اذا ارادت فعلا الاستقلال وتحرير اجزائها من الاحتلال والاحتكار

وفرض نفسها كقومية متطورة لها الحق في الحياة ، في ظروف لاتعطي هذا الحق الا من يملك ناصية العلم والتقدم .

وانانهيب بالدول العربية ان تدرك هذه الحقيقة وتعمل على سلوك هذا الطريق الوحيد باسرع مايمكن ، وبكل مالديها من طاقات وامكانات ، منفردة ومجتمعة ، لتنقذ هذا الجيل من عار التخلف وتبني له مستقبلا مشرقا كريما .

الإرهاب في البرازيل[1]

مرسيو موريرا الفيس

اقتباس وترجمة : سامي ذهبي

لا توجد في البرازيل اضطهادات دينية . اما الاضطهادات السياسية ، بالمقابل ، فشاملة مستمرة وديموقراطية — لا تميز بين الشيوعي والكاثوليكي أو بين استاذ الجامعة والأمي البائس . فجميع الذين يتمردون على مظالم مجتمع متخلف ،لا يزال حتى الآن اقطـــاعياً في العديد من مظاهره ، يخضعون لديكتاتورية تحاول ايقاف الزمن .

---

(١) صاحب هذا البحث الخطير السيد مرسيو موريرا ألفيس Marcio Moreira Alves هو احد نواب المعارضة في البرلمان البرازيلي . وقد نشر مؤخراً كتاباً عن التعذيب في بلاده عنوانه : Torturados - Rio de Ganeiro - Juin 1967 ويعتبر الكتاب وثيقة خطيرة جداً ، يقدمه مسؤول سياسي برازيلي الى ابناء امريكا اللاتينية والى الرأي العام العالمي ، كدلالة على مدى تغلغل وممارسة عقلية الارهاب والاضطهاد التي تنشرها أجهزة مخابرات الولايات المتحدة الامريكية ، لاعاقة حركة التقدم والتحرر التي انطلقت لدى شعوب امريكا اللاتينية وسائر شعوب افريقيا وآسيا .

« المعرفة »

لقد دأبت الصحافة المسيحية في أوروبا منذ ثلاث سنوات على نشر البيانات عما يعانيه الكهنة والعلمانيون البرازيليون من عمليات التعذيب والسجن والنفي. وتعزل هذه الانباء آلام فئة مسيحية عن مجموع الاضطهادات السياسية وتعطي فكرة خاطئة عن الواقع الذي نحياه. فهي تحمل على الاعتقاد بأن صواعق النظام البوليسي تتركز ضد هذه الفئة. لكن ذلك أبعد ما يكون عن الصواب. فقد دفع المسيحيون المضطهدون ثمن تصورهم لدور الكنيسة في الميدان الزمني، واضطهدوا، مثل الآخرين، لأنهم حاولوا تغيير بنيان المجتمع البرازيلي. فالذين قاموا بعمليات الاعتقال والتعذيب والنفي لم يفتشوا عن فوارق ايديولوجية عند ضحاياهم. ولم يروا سوى الزعيم النقابي أو المنظم الريفي أو الطالب او المثقف الذي يجب القضاء عليه بسبب افكاره او بسبب قيامه بعمل من شأنه زعزعة النظام الاجتماعي القائم.

عرّف السيد بيدرو اليكسو Pedro Aleixo، نائب الرئيس الحالي، وأحد القادة السياسيين للانقلاب العسكري الذي أطاح في اليوم الأول من نيسان سنة ١٩٦٤ بحكومة جوان غولار الشعبية، عرف الانقلاب بأنه حركة معادية للثورة. وقد وضعت استراتيجيته بدقة، خلال عدة سنوات، فئة من ضباط قيادة أركان الجيش الموالين لأمريكا والمتلمذين على يد اقتصاديي وتكنوقراطيي الطبقات الحاكمة، ممن أصيبوا بهوى الاخلاقية العقيمة لحزب اليمين، الاتحاد الديموقراطي الوطني، الذي يعتبر أكثر زعمائه بلاغة السيد كارلوس لاسيردا حاكم ريو السابق والمعروف في فرنسا تحت لقب «المطيح بالرؤساء». ولكسب دعم الطبقات المتوسطة، شنت حملة واسعة ضد الشيوعية، استخدمت فيها جميع وسائل الاتصال، وكذلك مبالغ طائلة، بينما كانت أخطاء الرئيس غولار

ومؤيديه من اليساريين تضعف امكانيات مقاومة شعبية . اذاً لم يكن على قادة الانقلاب ، الأقوياء بسبب استعدادهم وارتباك معارضيهم ، سوى انتظار حادث ما قد يلعب دور وسيط في سبيل توحيد القوات المسلحة . واتى ذلك الحادث على صورة خطأ ارتكبه غولار : دعمه لتمرد البحارة وصغار ضباط البحرية « ضد المعاملة اللاانسانية التي يلقاها البحارة على يد السلطات الرجعية والمعادية للشعب » وقد رفض رئيس الجمهورية معاقبة المتمردين . ففسرت تلك البادرة بأنها موافقة على مهاجمة السلطات العسكرية التي قام بها في سلاح الطيران الرقباء الذين القى عليهم غولار آخر خطبه في ٣٠ آذار سنة ١٩٦٤ . وفي الوقت نفسه كان اليسار المنقسم والمصاب بحمى راديكالية يشن في جميع انحاء البرازيل حملة واسعة لتأييد الاصلاحات الاساسية « بالقانون أو بالقوة » ، ناسياً ان قوته في بلد جماهيره العمالية والفلاحية مشتتة ، ومشاريعه في يد رؤوس الأموال الاجنبية أو شركائها ومراقبة وسائل الاتصال فيه في خدمة المصالح المحافظة ـ هي الشرعية بشكل خاص. كما نسي اليسار ان كبار قادة الجيش كانوا خاضعين منذ الحرب لنوع من غسيل الدماغ من قبل الامريكيين الذين كانوا يمدونهم ايضاً بالاسلحة . وكان هؤلاء الضباط يؤيدون ، ولو لمجرد تبرير وجودهم في بلد ضعفت ميوله الحربية ، نظرية تقسيم العالم الى كتلتين ، وكانوا يقدمون تحالفهم غير المشروط لاحـــداهما ـ الامريكية ـ راضين القيام بمهمة الحارس لها ضد التخريب ، فاهتبلوا الفرصة للاستيلاء على الحكم،وذلك للمرة الاولى في تاريخ البرازيل ؛ وحطموا الاسطورة العزيزة على اليسار ، والقائلة بجيش برازيلي وطني غير سياسي .

لكن العسكريين لم يتمكنوا ، بعد استيلائهم على الحكم ، وحسب نبوءة أحد ضحاياهم ، الأستاذ سيلسو فورتادو ، من ممارسته كاملاً ، لافتقارهم الى

الأطر (الكوادر) فاستولوا اذاً على بعض مواقع القيادة — رئاسة الجمهورية بالدرجة الأولى — تاركين ممارسة الحكم الحقيقية لحلفائهم اليمينيين ، من رجال المال والتكنوقراطيين . واحتفظوا لأنفسهم بطاردة السحرة ، إذ كانوا يشعرون أنهم بحكم مهنتهم أهلٌ لها .

إن نتيجة تقسيم العمل هذا هي نظام بوليسي يمارس الاعمال الوحشية بما يشبه النوبات التشنجية ، ويشل النشاط النقابي والثقافي ، ويبدي احياناً خجلاً غريباً من لاشرعيته الخاصة . ويستنجد على الدوام بالقانونيين من خدمة الشكنات ليغطي نفسه بقوانين جديدة .

ان الاساليب البوليسية المستخدمة في البرازيل تختلف قليلاً عن تلك التي استخدمت حتى الآن في الاماكن الاخرى . فبالنسبة لعمليات التعذيب ، — جمعت روايات اكثر من ثمانين ضحية — ، يبدو أن تجربة مظليي الجزائر هي النموذج الذي يستلهمه العسكريون البرازيليون . وبالنسبة لإقامة شبكة تجسس متمركزة في المكتب الوطني للمخابرات الذي يرأسه شخص برتبة وزير ، وله موازنة سرّية ، والذي هو المارشال كاستللو برانكو ، فقد كان النموذج المستوحى امريكياً . ويبدو من جهة أخرى ان الولايات المتحدة قد زودته بالغالبية العظمى من تجهيزاتها . ويصعب دائماً ايضاح مصدر الاجهزة الالكترونية التي تملكهـــا هيئات التجسس . لكن بوسعي الادلاء باعتراف عن حادثة عشتها شخصياً في احدى المناطق النائية من البرازيل : في ايلول سنة ١٩٦٥ ، تمّ اعتقالي في مدينة سان لويس دي مارنهاو ، الواقعة عند حدود منطقة الامازون . فأسمعني ضابط الاستخبارات تسجيلات احاديثي « الهدّامة » مستخدماً لذلك جهازاً كان لايزال يحمل عبارة « صوت امريكا » .

انه ليصعب تحديد الخطط العام لعمليات الاضطهاد السياسي في البرازيل. فقد اطاح الانقلاب العسكري بالحكام المنتخبين عن سبع من ولايات البرازيل الاثنتين والعشرين، وحرم ما يقارب الألف من اعضاء مجلس الشيوخ والنوّاب والمستشارين البلديين والمخاتير والموظفين من حقوقهم السياسية ومن انتدابهم. وطرد عدة آلاف من الضباط المدنيين من الخدمة العامة. وزج ما يزيد على ستين الف شخص في المعتقلات خلال الاشهر الأولى من حكم كاستللو برانكو Castelo Branko لكن ذلك الرقم انخفض اليوم الى عدة عشرات، في حين تنمو جاليات المنفيين البرازيليين في امريكا اللاتينية وأوربا بشكل ملحوظ. وتتراوح الاحكام الصادرة عن محاكم البداية بين ٥ و٣٠ عاماً. لكن المحكمة العسكرية العليا تخفضها عادة. ولم يبقّ من معتقلي الايام الأولى سوى أقلية ضئيلة رهن الاعتقال، باستثناء الزعيم الشيوعي غريغوريو بيزرا Crégorio Bezerra الذي عُذِّب وسُحل في شوارع مدينة ريسيف، مفتوح الجمجمة ومربوطاً بحبل حول عنقه، رغم سنيه الاثنتين والسبعين.

ان اللطف الظاهري الذي يبديه النظام البوليسي، غالباً ما تحطمه نوبات العنف. ذلك ان العسكريين المكلفين بحفظ الأمن في المدن المعتبرة محرجة — خاصة ريسيف، عاصمة الشمال الشرقي البائس، وريودي جانيرو مع ضاحيتها العمالية النائمة، وبيلو هوريزونت، مركز الشبيبة المسيحية اليسارية، وبورتو اليجري في اقصى الجنوب، الحصن الانتخابي للسيد غولار وصهره المرعب السيد ليونيل بريزولار، ينكبّون على عمليات يطلقون عليها اسم «الإقلاق» او «الحضور». فهم يقومون بغزوات ضد المعارضة، او يكشفون خلايا المتآمرين، او يضربون الطلاب المتظاهرين في الشوارع. ففي

٢٣ أيلول سنة ١٩٦٦ مثلاً، اقتحمت الشرطة العسكرية كلية طب ريودي جانيرو، اثر المظاهرات التي عمّت كل مكان تقريباً ؛ فأصيب / ١١٠ / طلاب بجراح .
كما كانت حادثة الرقيب السابق في الجيش ، مانويل ريموندوس سانتوس ، ابشع من ذلك بكثير . فقد عُثر على جثته في أحد أنهار بورتو أليجري، ويداه موثقتان خلف ظهره بأسلاك حديدية . وكان قد توصل ، لعده اسابيع خلت ، الى تهريب رسالة من سجنه تفضح عمليات التعذيب التي اخضع لها وكذلك اسماء جلاديه .
وقد أعلن في فقرة تضمنت تنبؤاً غريباً : « سمعت في الـ D.O.P.S (قسم النظام السياسي والاجتماعي) انني كنت أكثر من « عولج » بين المساجين الذين مرّوا فيه حتى ذلك الحين . فممّ أخاف بعد إذن ؟ لست فريسة اي خوف دنيء. ولم أضطر حتى الآن أن اعلن اني لا أخاف الموت نفسه . ربما سيحدث ذلك . والأمر للمستقبل » .

مسيحيون مشبوهون :

اتصفت علاقات الحكومة العسكرية مع الكنيسة الكاثوليكية التي ينتمي اليها ٩٠٪ من البرازيليين ، بالحذر الشديد . فالمارشال كاستلاو برانكو ينظر الى الكنيسة ، بصفته محافظاً ، على انها هرمية الشكل ، شأنه في ذلك شأن العديد من أفراد طبقته . وقد راعى عملاؤه الاكليروس ، وأصدر هو منذ الأسابيع الاولى لحكمه أمراً بعدم اعتقال اي كاهن دون إعلام أسقفه مسبقاً . لكن المنظمات العلمانية ، وبشكل خاص منظمات الشبيبة ، اعتبرت هدامة بشكل صريح . فقد ظهرت بعض وثائق الشبيبة المسيحية الطلابية (J.E.C) في معرض نظمه عسكريو مدينة بياو هوريزونت بين وثائق المنظمات الموالية للحزب الشيوعي.
كما ظهرت في مدينة باهيا اذاعات حركة التربية الاساسية (M.E.B) ، وهي

منظمة مرتبطة مباشرة بمؤتمر أساقفة البرازيل ، للدلالة على أن ثمة حركة لتحويل البرازيل الى كوبا جديدة وأن الانقلاب قد حال دون حدوثها .

أدت هذه العلاقات الرسمية والودية الى بعض النتائج سواء من جانب الكنيسة او العسكريين. فقليلون جداً هم الكهنة الذين ظلوا طويلاً رهن الاعتقال. وبالمقابل ، فان مئات المناضلين العلمانيين الذين أخضعوا لأبشع شروط الاعتقال خلال أشهر نيسان وأيار وحزيران سنة ١٩٦٤ ، قد وصل الى أسماعهم صوت كاردينال ريودي جانيرو يعلن بواسطة الاذاعة ان من أعمال الخير معاقبة هؤلاء الضالين ، كما قرأوا الاعلان الرسمي الذي صدر عن مؤتمر الاساقفة الوطني والذي جاء فيه ان الانقلاب العسكري انقذ البرازيل من الشيوعية .

كان تفاهم العسكريين مع السلطة الكنسية أمراً متوقعاً . فالكنيسة حليفة الطبقات الحاكمة . وهي دائماً في البرازيل حليف طبيعي للأقلية التي تحكم الأمة ، وربما استحقت أن توصف « بأفيون الشعب » . ومن جهة أخرى ، لم يتحقق انفصال الكنيسة عن الدولة كما نص على ذلك اول دستور جمهوري سنة ١٨٩١ ، لأن الكنيسة تعتمد اعتماداً كبيراً على مساعدات الدولة للقيام بمهامها ، ولأن الحكام يستنجدون بها لاستكمال مطالب احتفالاتهم ، إذ تقضي القاعدة اقامة صلاة « انت بالله » في المناسبات الهامة .

ان السلطات البرازيلية لم تشرع بالاهتمام ، ولو بحياء ، بالمظالم الاجتماعية الصارخة المحيطة بها الا ابتداء من سنة ١٩٥٠ . ويرجع الى ذلك العام تاريخ نشر أول رسالة رعوية تحدثت عن الحاجة الماسة الى اصلاح زراعي ، على يد أسقف فرنسيسكاني يدعى اينوسنسيو انجلكي . ومنذ ذلك الحين ، كلما اهتمت الحكومات بهذه المشاكل او اتخذ الاكليروس الشاب ومنظمات الشبيبة مواقف اصلاحية ،

وأحياناً ثورية ، في وجه بنيان البلاد الاجتماعي، ازدادت الوثائق والمعلومات أمام السلطة الكنسية ،حتى أدت بها الى تأييد الاصلاح الزراعي والتعليم الاساسي سنة ١٩٦٣ تأييداً صريحاً . لكن هذه الوثائق الجماعية اصبحت بعد انقلاب سنة ١٩٦٤ نادرة ، وإن دلت على شيء ، فإنما تدل على تراجع ملحوظ . ولم يستمر إلتزام الكنيسة بالامور الزمنية إلا على يد أقلية ضئيلة من الاساقفة الذين يعتبر أوضح صوت بينهم صوت اسقف مدينة ريسيف هيولر كامارا .

لكن المعاملة الطيبة التي يبديها العسكريون تجاه السلطة الكنسية لم تمر دون بعض اصوات استنكار ، ولم تمنع من حدوث بعض الشكوك التي تناقلها الوثائق السرية . ففي شهر آب سنة ١٩٦٤ ، أثير جدال عنيف عندما نشرت الصحف مقتطفات من نشرتين تتحدثان عن الأسقف كامارا ،أصدرهما قائد المنطقة العسكرية العاشرة . فقد أثبت الجنرال غوفادو أمارال في هذه الوثائق التي وزعت على الاكليروس بلباقة دبلوماسية فائقة قيام الكنيسة بنشاطات مريبة في الشمال الشرقي من البرازيل . واتهم الجنرال الاسقف كامارا بأنه « مشاغب » وانه « يستمتع بالظهور على شاشة التلفزيون ، والمبالغة في التهريج ، والقيام بحركات كنجم سينمائي » ، الأمر الذى « من شأنه إثارة قلق الاكليروس والراهبات » ويؤدي الى ان « تعتبر المنظمات الشيوعية أثناء تحليلها للقوى المعارضة لاستيلائها على الحكم ، الكنيسة الكاثوليكية تنظيماً مشتتاً وصالحاً كي تتسرب إليه » .

ولم تهدأ عاصفة البيانات واعلانات التضامن مع الاسقف كامارا الا بعد نقل الجنرال الأديب من منصبه . ولما عين في منصب أرفع ، خرج الطرفان رابحين .

اما بالنسبة لشكوك العسكريين ، فبوسعنا الاطلاع على مثال معبر عنها

في وثيقة من وثائق المكتب الثاني التابع لسلاح الجو في الجنوب ، وقد عرضت أثناء محاكمة احد مناضلي الشبيبة المسيحية الطلابية ويدعى جوزيف لويس فيوري ، وقد ورد فيها : « يمكننا ان نتوقع ان ينطلق اكبر مركز هدام بعد الثورة من الافراد المرتبطين بالكنيسة ، نظراً للحرية التي يتمتعون بها في التنقل في جميع المرافق الاجتماعية » .

لكن ذلك السلام المسلح لن يظهر فعاليته بالنسبة لهؤلاء الملتزمين بعملية تحويل اجتماعي مباشرة والذين لا يتمتعون بحماية رداء أسود . وإذا كان من باب المستحيل تحديد جميع الاضطهادات السياسية وتقويم جميع عمليات التعذيب والسجن والآلام ، فالهدف من هذه الاجراءات الزجرية واضح تماماً ، وقد ظهر بجلاء منذ شهر نيسان سنة ١٩٦٤ ، الا وهو حماية النظام الاجتماعي القائم . وقد تأكد هذا الهدف بوضوح أدركته امرأة تملك اراض وهي نصف أمية من مدينة ريو غراندي . ففي أواسط سنة ١٩٦٤ ، كتبت السيدة اميليانا مياو الى أحد مرابعيها وهو أب لثلاثة عشر ولداً ، كان يرفض ترك الاراضي التي زرعها والتي كانت المالكة تريد تحويلها الى مراع :

« اذا أراد المالك انشاء حظيرة للماشية على قطعة الأرض التي تعمل عليها ، فليس بوسعك معارضة السيد . أو تعتقد انه يحق لك السطو على ملك الغير ؟ كان عليك ان تعلم ان عملية السطو معادية للجيش . واليوم ، جميع الذين يتحدثون عن النقابة يعتقلون فوراً » .

قمع الحركة النقابية :

تناول القمع العسكري بشكل خاص نقابات الأرياف والمدن، ودورات التعليم الجماهيرية والجامعات ، فقد كان يسعى للقضاء على الحركات العمالية التي

بوسعها الاساءة الى سيطرة رأس المال المطلقة التي تجلت في المخططات الاقتصادية للحلفاء المدنيين للقمع العسكري ، كما كان يسعى في الوقت نفسه الى منع سكان الريف من ان يتفهموا بؤسهم عن طريق التربية الاساسية ، واسكات النخبة المثقفة والطلبة والاساتذة .

تصرّف العسكريون لحماية حكم الأقلية ، التي هي الأخ التوأم لليبرالية الاقتصادية ، باسلوب وتصميم هما من خصائص النازية . فبعد الانقلاب باسبوع واحد ، حلّت جميع الاتحادات العامة للعمال : الاتحاد العام للعمال (C. G. T.) وميثاق الوحدة والعمل (R. N. A.) وجبهة التعبئة الشعبية (F. M. P.) التي لم تكن انظمتها قد أقرّت قانوناً بعد . وزجّ زعماؤها في السجون أو تواروا هم . كما تعرضت جميع النقابات الكبيرة لتدخل وزارة العمل ، بعد أن خلع مديروها من مناصبهم واضطهدوا في بعض الأحيان . واعتبر القيام بأي نشاط في المنظمات الطبقية عملاً اجرامياً ، كما يتضح ذلك في الاتهام الموجه ضد السيدة إلزي كيروز باربوزا في الدعوى رقم ٢٩٤ من قضاء مدينة بارانا العسكري والذي جاء فيه : « كانت أيضاً امينة سر نقابة مستخدمي السكك الحديدية لمدينتي بارانا وسانتا كاترينا التي أنشئت سنة ١٩٦٣ وألحقت بالاتحاد الوطني لعمال السكك الحديدية الهدّام ... » وعوقبت هذه الجريمة بقساوة تفوق جميع ما استخدم في غيرها . وبينما حكم قضاء سان باولو العسكري على الأمين العام للحزب الشيوعي لويس كارلوس برستس بالسجن لمدة أربعة عشر عاماً ، فقد حكم على رئيس اتحاد عمال الصناعات الغذائية لويس تنوربودي لبا لنفس الاسباب الايديولوجية بالسجن لمدة ثلاثين عاماً .

يرجع تاريخ منظمة عمال المدن في البرازيل الى سنة ١٩٣٠ ، وقد

وطدتها بشكل كامل ديكتاتورية فارغاس الذي حفظ عنه وريثه السياسي، غولار، عيوبه في التسلط على شكل الوصاية الأبوية . لكن فارغاس وغولار ، بتحويلهما الزعماء النقابيين الى شبه موظفين ، عودا المنظمات العمالية على تحقيق مطالبها دون جهد تقريباً في أروقة وزارة العمل بدل الشارع . فأضعفت هذه السياسة قدرة النقابات على المقاومة اذ لم تعد بحاجة الى التنظيم لنيل حقوقها ، وتجلت هذه السياسة بأنها عملية انتحارية . فاذا قارنا النضـال الذي تقوده النقابات الارجنتينية ضد الديكتاتوريات العسكرية في ذاك البلد ، بفقدان المطالبة في البرازيل منذ سنة ١٩٦٤، أدركنا الى أية درجة كان خضوع الحركة النقابية البرازيلية لغولار مشؤوماً .

كانت منظمة الفلاحين ، خلافاً لحركة عمال المدينة ، جديدة كل الجدة في البرازيل . فقد انشئت سنة ١٩٥٨ عندما أسس مزارعو مزرعة قصب سكر من برنامبوك (اسمها الجليل) ، جمعية تعاونية لشراء التوابيت — بلغ بهم العوز حد تكفين موتاهم بأوراق الصحف — فأدركوا أن القوة في الاتحاد ، ودخلوا في صراع مع المالك الذي اعتاد التغيب . فحاول هذا الأخير طردهم من أراضيه ، بمساعدة رجال الشرطة . فبرز محام اشتراكي يدعى فرانسيسكو جوليان لنصرة الأسر المهددة ، وما لبث أن تشكل اتحاد الفلاحين بعد ذلك بفترة قصيرة .

ان النجاح السريع الذي حققته الاتحادات الفلاحية لم يثر مخاوف القوى المحافظة — بما فيها السلطة الكاثوليكية — فحسب ، بل مدّ تحت أنف الاحزاب اليسارية حقيقة صارخة : الحاجة الى تنظيم الجماهير الفلاحية التي تشكل اكثر من نصف سكان البرازيل .

وأدى ذلك الى سباق لكسب رضى الفلاحين . وكان الاتجاه العام نحو تشكيل اكبر عدد من النقابات ، بغض النظر عن كفاءة اداريها . وقد تمكن

المسيحيون الذين انطلقوا متأخرين عن الماركسيين في ذلك السباق من احتلال مركز الطليعة بفضل وسائلهم الاعلامية القوية والحرة ، والتنظيم الثاني للكنيسة ، وبشكل خاص بفضل الاحترام التقليدي الذي يكنه لهم سكان الشمال الشرقي المتصوفون الذين لايتعلقون بالحياة الا عبر ايمانهم بالعجائب .

وازدهرت النقابات الريفية على أوسع نطاق في منطقة زراعة قصب السكر في شمال شرقي البرازيل . ومن الجدير بالذكر أن قصب السكر سيد مفترس : لايفسح المجال لأي نبات آخر حينما بسط معطفه الأخضر الشاسع . وقد يُستنبت حتى بين السكك الحديدية الخاصة بالمزارع ويصل حتى أبواب بيوت الأسياد التي لاتفتح الا زمن الجني . انه نظام الزراعة الواحدة ، فملاك الأرض يمنعون الفلاحين من انتاج بعض المحاصيل حول أكواخهم لسد الرمق ، وتلك قاعدة متبعة في جميع المناطق الاخرى من البرازيل . ويؤدي ذلك الى المجاعة وارتباط الفلاحين المطلق بأهواء الأسياد التي يرغمون على شراء الأرز والطحين والفاصولياء السوداء منها بأسعار تفوق مثيلتها في الأماكن الاخرى بنسبة ٤٠٪ ويستخدمون لذلك قسائم خاصة كوسيلة للدفع . وتسخر معظم المزارع الفلاحين ،زيادة في خطورة ذلك الوضع ، يومين أو ثلاثة في الاسبوع دون مقابل . ويبلغ أجر الفلاح حوالي ليرتين سوريتين ونصف الليرة لقاء عمل اثنتي عشرة ساعة . هذا عندما يقبضونها .

ليس من دواعي الاستغراب أن تنمو بذور الثورة في تلك البيئة المستغلة للانسان والتي تعتبر ، حسب رأي رينه ديمون René Dumont ، أسوأ ما في العالم ، باستثناء المنطقة الشرقية من أوتار باردیش في الهند . فقد ظلت النقابات واتحادات الفلاحين ومنظمات عمالية اخرى تنبت في شمال شرقي البرازيل كالفطور حتى شهر نيسان ١٩٦٤ . كما توصلت جماهير الفلاحين للمرة الأولى في التاريخ بمساعدة

الحاكم ميشيل آرايس الى الحصول على الآجر الأدنى لليد العاملة في زراعة قصب السكر . وعندما قبض العمال هذا الأجر ، نفذت جميع الاسرة من المخازن التجارية ، مما يدل على أنها كانت المرة الاولى التي حصلوا فيها على ثمنها .

تعدّدت الصراعات بين الفلاحين الذين بدأوا يعون حقوقهم من جهة ، وبين المالكين الذين شعروا جيداً بما يتهدد امتيازاتهم من اخطار من جهة اخرى، واتخذت احياناً صبغة دموية . ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتل أي مالك ، في حين قتل عدد كبير من الفلاحين .

اجتاحت حملة انشاء النقابات الريفية التي انطلقت من الشمال الشرقي مناطق اخرى من البرازيل . ففي ولاية ميناس جيديس ذات النظام الرجعي والمحاطة بالجبال العالية التي ازدهرت فيها حضارة الذهب في القرن الثامن عشر ، تزعم النائب الكاهن فرانسيسكو لاج مجهود « توعية » قامت به الادارة العليا للاصلاح الزراعي (S. U. P. R. A) شمل عدداً كبيراً من الطلبة ومناضلي الشبيبة المسيحية . وتلعب ولاية ميناس‌جيديس تجاه الكاثوليكية البرازيلية دوراً مشابهاً لدور فرنسا تجاه الكنيسة العالمية : انها موطن للافكار والحركات اليسارية ، وفي نفس الوقت حصن للرجعية . فمنطقي اذاً أن تتحول شوارع عاصمتها بيلو هوريزونت الى ميدان معارك بين الاتجاهات اليسارية المستقطبة حول منظمة العمل الكاثوليكي والاتجاهات اليمينية المتحصنة في جمعية « الاخوية المريمية » وفي سان باولو التي غالباً ما يختنق الثراء المادي فيها الصراعات السياسية ، أضفت الاضرابات وبدايات التنظيم على مجتمع الوفرة صبغة برازيلية جداً . وفي اقصى الجنوب ، اسس انصار السيد بريزولا حركة « المزارعين بدون اراض » التي تحمل الايجاز الامريكي الساخر التالي M. A. S. T. E. R فاستولوا على بعض الاقطاعات واجتذبوا

الانصار من رعاة مناطق تربية المواشي . لكن جبهة المزارعين الرعاة التي تديرها السلطات الكاثوليكية عارضت هذه الحركة وبسطت نفوذها على منطقة الاستعمار الالمانية والايطالية حيث تم الاصلاح الزراعي منذ القرن الماضي .

لكن شيئاً من ذلك كله لم يبق على قيد الحياة بعد الانقلاب العسكري. ففي ولاية سيارا في الشمال الشرقي ، سقط رأس الماريشال كاستلو برانكو ، شنت الكتيبة المدفعية العاشرة حملة تأديبية شبيهة بتلك التي شنها الطابور الاجنبي ضد الطوارق : قامت بهجوم الى داخل الولاية واغلقت ٢٦ نقابــة فلاحية . وتعرضت نقابات برنامبوك وعددها ١٠٥ للتدخلات بعد أن اعتقل معظم اداريها وبلغ التعذيب في السجون حداً توجب معه نقل عدد من الضحايا الى المستشفى القضائي . وفي ولاية سيرجيب ، أصغر ولايات البرازيل ، اجرى عمليات التحقيق صاحب معمل سكر وعقيد في الجيش بنفس الوقت . فوضع حداً لحملة انشاء النقابات التي قامت برعاية الاسقف تافورا واعتقل مساعد الاسقف الرئيسي جواكيم اكسوري ، الذي شغل في السابق منصب مدير الفرقة الوطنية للشبيبة المسيحية العاملة (J.O.C) .

وفي ولاية سيرجيب ايضاً اتاح مثال مفجع فرصة تقدير ما للنقابات الريفية من اهمية سياسية والوقوف على مدى تهديدها للطبقات الحاكمة . ففي سنة ١٩٦٢ ، قرر فلاحو قرية ايتابورانغا تقديم مرشح الى انتخابات المجلس البلدي فنظموا اجتماعاً في الساحة العامة واختاروا رئيس النقابة المحلية . ثم اكتتبوا في حزب العمال الذي لا يلعب اي دور تقريباً في السياسة المحلية والذي كانت تسيطر عليه الاحزاب المحافظة تقليدياً . فحصل ذلك المرشح على ثمانية اضعاف ما حصل عليه جميع المرشحين الآخرين من الاصوات . فسيطر اعضاء حزب

العمال بين ليلة وضحاها على المجلس ووضعوا حداً لسيطرة « اسياد الارض » على الادارة المحلية . ومن البديهي ان انقلابا لحماية بنيان السلطة التقليدي لم يكن ليتساهل مع قوة سياسية كهذه .

وتكررت هذه المهزلة العنيفة في ولاية ميناس جيديس حيث تعرّض جميع الذين ساهموا في انشاء النقابات الريفية للاضطهاد . وقد جرّد ممثل الادارة العليا للاصلاح الزراعي من حقوقه السياسية لمدة عشر سنوات ، وأعتقل عدد من مساعديه . لكن الاب فرانسيسكو لاج ، النائب العمالي ومؤسس اللجنة الوطنية لانشاء النقابات الريفية ، كان ابرز ضحايا العسكريين فقد حكم عليه القضاء العسكري في شهر ايلول سنة ١٩٦٥ بالسجن لمدة ٢٨ عاماً . وقد بعث إلي برسالة من منفاه في المكسيك يخبرني فيها انه اعتقل في ١٠ نيسان سنة ١٩٦٤ في مدينة برازيليا حيث قام محام وضابط من شرطة ميناس جيديس بتعذيبه بقضبان الحديد الحامية واحراقه بأعقاب السجائر داخل منزله الخاص . وعندما نقل الى السجن ، التقى بلفيف من اساتذة جامعة برازيليا فاستقبله واحد منهم يدعى الاستاذ جوفيلي قائــلاً : « انك موجود ايها الاب العزيز لاج في المكان الأوحد الذي يمكن لرجل محترم ان يوجد فيه اليوم في البرازيل . » ثم يشرح لي في رسالته سبب انتظاره الاعتقال بدل الاحتماء في مكان خفي : « السبب هو اني كنت اعلم أن مئات الفلاحين الذين التزموا بالنضال ، ابتغاء لمثل إنجيلي أعلى ، سيعتقلون ويضطهدون فإذا ما علموا ان الكاهن تخلّى عنهم في أحرج الاوقات ، حدثت فضيحة كبرى . »

امضى الاب لاج عدة اسابيع اخرى في السجن دون ان يقدم للمحاكمة . ثم افرج عنه اخيراً بموجب قرار من المحكمة العليا – قرار منع المحاكمة لأنه لم

يمثل امام القضاء – ، فطلب عندئذ حق اللجوء السياسي في السفارة المكسيكية ، أياماً قليلة قبل الحكم النهائي الذي أدانه .

تطهير الجامعات

احتلت منظمات التعليم والثقافة والحركات الطلابية في مخطط القمع الذي وضعه العسكريون مكانة من الدرجة الأولى تأتي مباشرة بعد النقابات . فقد استهدف العسكريون قبل كل شيء في مجتمع قائم على خنق التطلعات الشعبية تدمير المنظمات الجماهيرية التي وعت المظالم ، ثم القضاء على المنظمات التي تكرّس جهودها للتوعية ، واخيراً إخضاع الاشخاص المنتمين الى الطبقات صاحبة الامتيازات الذين « خانوا » جذورهم الاجتماعية بالوقوف الى جانب الشعب ومساعدته على صياغة مطالبه .

ومن أبرز ضحايا تلك الحملة التي قامت لمكافحة منظمات التوعية ، حركة التربية الاساسية (M. E. B.) ، المرتبطة رسمياً بمؤتمر أساقفة البرازيل ، وحملة محو الامية بين الكهول ، التابعة لوزارة التربية .

فحركة التربية الاساسية دأبت منذ سنة ١٩٦١على إنشاء مدارس تستخدم اجهزة الراديو في اكثر مناطق البرازيل تأخراً – خاصة في شمال شرقي البلاد ومنطقة الأمازون – وكانت توفق ببرامج التعليم الابتدائي دروساً عن « الواقع البرازيلي » . لكن هذه الدروس التي لقنت العمال المبادىء النقابية واطلعتهم على حقوقهم الانسانية والسياسية كانت سبب الاضطهادات التي تعرّضت لها المنظمة .

أما حملة وزارة التربية ، فكانت آخذة بالنمو عندما وقع الانقلاب . وكان الرئيس غولار الذي فاق اهتمامه بالامور السياسية دائماً اهتمامه بالمظالم الاجتماعية ، قد شنّها في آخر انتدابه الرئاسي . فنظراً لحرمان الاميين من حق

الانتخاب في البرازيل ، ارتأى غولار ضرورة زيادة عدد الناخبين لمواجهة مرشحي الوسط واليمين : كوبيتشك ولاسيردا في انتخابات سنة ١٩٦٥ . واستهدفت هذه الحملة تلقين ربع الاميين — ١٠ ملايين — في البرازيل مبادىء القراءة والكتابة خلال السنة الأولى ، اعتماداً على الطريقة التي وضعها الاستاذ باولو فرير والتي تسمح للكهول بتعلّم القراءة والكتابة خلال اربعين ساعة من الدروس . كما ضمنت هذه الطريقة برامج التعليم معلومات الطلاب اللغوية واليومية . لكنها ارتكبت في نفس الوقت جريمة اعتبرها قادة الانقلاب في منتهى التهديم ، الا وهي اطلاع الطلبة على حقيقة المجتمع الذي يعيشون فيه وما يملكون من الوسائل الكفيلة بتغييره . فكانت فعاليتها هي سبب ادانتها بالموت . إذ في أعقاب تجربة من هذا النوع في مدينة من شمال شرقي البرازيل تدعى انجيكوس ، قرّ أعمال البناء قانون الحدّ الأدنى للاجور ، فنظموا اضراباً . لكن هذه الأمثولة لم تغب عن ملاحظة حماة « الحضارة المسيحية الغربية » في البرازيل .

نصّ أحد القرارات الأولى التي اصدرها وزير التربية الجديد على ايقاف حركة محو الأمية عند الكهول . واعتقل الأستاذ باولو فرير المقيم اليوم في الشيلي حيث يرأس حملة مماثلة شنتها حكومة الرئيس ادواردو فراي . كما عُطّل مختبر الاستاذ فرير التربوي في جامعة برنامبوك المعروف باسم : هيئة التطور الثقافي ، وزج أبرز مساعديه في السجون العسكرية او نفوا كما حدث للأب الميري بيزيرا . ودفع أحد مساعدي الاستاذ فرير يدعى لورو الوليفيرا ، وهو من ألمع خبراء التربية في البرازيل ورئيس سابق لقسم التعليم الثانوي في وزارة التربية ، عدة أشهر في السجن بالاضافة الى منصبه ثمن جهوده لنشر التعليم الثانوي مع التركيز على مواد التطوير الاقتصادي .

نُظّمت حملة القمع ضد حركة التربية الأساسية من مدينة بيليم في ولاية بارا الواقعة عند مصب الامازون حتى عاصمة ولاية باهيا الباروكية القديمة في الشرق . فانقض العسكريون ورجال الشرطة المدنية وملاك الاراضي على مكاتب المنظمة ، واعتبروا أجهزة الراديو التي كان الأساتذة يستخدمونها لالقاء دروسهم خطيرة كالقنابل . وفي مدينة بارا ، القي القبض على استاذي حركة التربية الاساسية ، الميراندا بالها وتريز نتاغارسيا . وفي مارنهاو ، مدينة القديس لويس ، التي أسسها الفرنسيون في القرن السابع عشر ، صان أسقف المدينة للأساتذة حريتهم ، لكنه عجز عن منع الاستيلاء على الوسائل المعينة للتعليم . وفي أسقفية ريسيف ، اصدر الجنرال الفيس باستوس ، قائد الجيش الرابع ، أمراً بإيقاف بث برامج حركة التربية الاساسية من رادبو اولندا . وبالرغم من الشهرة الواسعة التي كان اسقف هذه المدينة هيلدر كامارا يتمتع بها على الصعيدين الوطني والعالمي ، فقد ظل ذلك الأمر ساري المفعول عدة اشهر اخرى . وقد تكررت الحادثة في مدينة بيلو هوريزونت ، عاصمة ميناس جيديس ، حيث ختم الجيش مكاتب المنظمة بالشمع الأحمر . وقد ورد في رسالة بعثت بها اللجنة الاقليمية لمدينة باهيا الى رئيسة حركة التربية الاساسية ومنشطتها الكبرى ، السيدة مارينا بنديرا ، بتاريخ ٣ تموز سنة ١٩٦٤ ، ما يلي : « قامت الشرطة العسكرية لجيش البرازيل ، كما تعلمين ، بتفتيش دقيق لمكاتب حركة التربية الاساسية في الخامس من نيسان وحملت معها كل ماوجدته من التجهيزات ، باستثناء الأثاث ولم تعد لنا سوى عدد قليل من هذه التجهيزات . وستجدين طي هذه الرسالة نسخة عن الوثيقة التي وجهناها لقائد الشرطة العسكرية نطالبه بهذه التجهيزات . فقد لاحظنا لدى فحص أجهزة الراديو أن ستة من الاجهزة التي وردتنا من مدينة مارنهاو مفقودة ، وأن ٥٠٪ على الأقل من

التي أعيدت لنا قد أصابها نصيب وافر من التخريب . كما تعرّض مقرّنا ايضاً لبعض الاضرار . واضطررنا الى استبدال باب كسر بضربات الأرجل واصلاح الشبكة الكهربائية . وفيما يتعلق بالاجهزة المفقودة ، يجري حالياً تحقيق بوليسي عسكري في نطاق الشرطة العسكرية بأمر من المنطقة العسكرية السادسة » . إن هذا التقرير البيروقراطي يعطي فكرة عن العنف الذي استخدم لمكافحة النضال الضعيف الذي قام به معلمو الابتدائي .

استمرت مراعـــاة العسكريين للسلطة الكنسية . فادخلت لمواجهة احتجاجاتها بعض التعديلات على طرق مكافحة حركة التربية الاساسية — استبدلت الحراب بوسائل اكثر ليناً في جدواها ، ألا وهي الوسائل الماليــــة — فلما كانت المنظمة تعتمد في بقائها على ماتتلقاه من مخصصات وزارة التربية ، قطع عنها ذلك المورد . فأصابها فقر مدقع أفقدها البقية الباقية من قواها حتى استحالت اليوم الى شبح لاحول له ولا قوة .

استهدفت عمليات القمع بعد ذلك حركات الشبيبة والاساتذة والطلبة . فاستبدلت في جميع الكليات سلطة مجلس الكلية بسلطة ضابط مهمته تحرّي « النشاط الهدّام » وشنت حملة عسكرية للاستيلاء على جامعة برازيليا ، أحدث الجامعات في امريكا اللاتينية . فقد دخل الجنود حرم الجامعة مـــدججين بالدبابات والقنابل والمدافع الرشاشة ، لاعتقال حوالي عشرين استاذاً وعشرات الطلاب . ثم زحفوا بشجاعة فائقة الى بناية الادارة وأدوا مهمتهم تحت انظار عدد قليل من العلماء واساتذة الموسيقى والمهندسين الذين عقد الذهول ألسنتهم . اما البطل في هذه المأثرة ويدعى الكولونيل دارسي لازارو ، فقد أدلى لرجال الصحافة بالتصريح التالي : « إذا كانت قصة الثقافة هذه ستمنعنا من احلال النظام في البرازيل ، فسنعطل الثقافة مدة عشرين عاماً » .

كانت جامعة برازيليا بمؤسساتها المركزية ونظامها الحر في اختيار الاساتذة المغاير لنظام الكراسي المتبع في الجامعات الأخرى والموروث عن العصور الوسطى ، تهدد المصالح المحققة في الجامعات الاخرى . لذا كان نصيبها من عمليات الاضطهاد هو الأوفر ، إذ فقدت ٩٠٪ من هيئتها التعليمية سنة ١٩٦٥ . فقد فضل الاساتذة الاستقالة جماعياً ، رغم قلة المناصب الجامعية في البرازيل ، على احتمال تدخل الشرطة في عملهم مدة أطول .

شملت التطهيرات السياسية جميع الجامعات البرازيلية تقريباً . فاستبدل عميد جامعة باهيا بعقيد من الجيش . وفي ولاية ميناس جيديس ، لم يدم التدخل العسكري اكثر من ٢٤ ساعة ، لكن الملاحقات القضائية لاتزال جارية بحق اكثر من مائة استاذ من أساتذتها . وفي سان باولو ، اتصفت عمليات التطهير بمزيد من القسوة ، اعتقادا بوجود جراحة وتشريح هدامين . فقد عرف الاستاذ ماريو شمبرغ ، أول فيزيائي توصل الى حساب عمر النجم المعروف بنجم الراعي ، سجن الشرطة السياسية . لكن تضامن علماء الذرة في الولايات المتحدة ضد اعتقاله أدى الى الافراج عنه . ومن بين الذين عرفوا الاعتقال ايضاً ، واحد من أشهر اللاهوتيين واستاذ في كلية ماريليا للفلسفة يدعى لوبالدو بوبي . لكنه كان أحسن حظاً من زميله إرناني فيوري من سكان ريو غراندي الذي اضطر الى طلب اللجوء السياسي في الشيلي . وفي جامعة سارا ، عوقب خمسة مدرسين وثمان واربعون طالباً من بينهم أحد المنفيين الآن في باريس .

إن مجرّد تعداد ضحايا الهوس العسكري البرازيلي من الجامعيين كاف للمرء دليل هاتفي . والبرازيل مصاب مثل جميع البلدان المتخلفة بداء خطر هو داء تصدير الأدمغة حسب تعبير هارولد ويلسون . فنحن نلاقي عادة

مشقة كبرى في الاحتفاظ بالعلماء والفنيين الذين تربيهم نظراً لسعيهم وراء الأجر الأفضل ، وخصوصاً وراء ظروف العمل التي يجدونها في البلدان المتطورة. ويسهل علينا تصور تأثير الاضطهادات السياسية على ذلك الميل القوي: فخلال عدة أشهر ، ازدادت المساهمة البرازيلية في تطوير البلدان الغنية في مجالات الثقافة والعلم بشكل هائل . ومن دواعي السخرية ان عدداً كبيراً من هؤلاء الذين اتهموا بعداواتهم لأمريكا ذهبوا للعمل في الولايات المتحدة .

موت الحريات الشعبية :

لم تكن هـــذه الاضطهادات السياسية سوى مجرد عملية تطهير للحقل الاجتماعي الذي اعتبره العسكريون مبتلاً باليسار ، ومن ثم تسلحوا بالقوانين التي ارتأوا ضرورتها لسلطتهم . فأصبح النظام هدف الدولة الاول ، والقوة المسلحة وسيلتها لتأمينه . والتبست هذه الفكرة عن النظام بإبادة كل مقاومة ، كما هي الحال في جميع الديكتاتوريات .

أذاعت « القيادة العليا للثورة » ،اي القـــادة العسكريون الذين قادوا الانقلاب ، الوثيقة اللادستورية رقم ١ في التاسع من نيسان سنة ١٩٦٤ . واوقف العمل بعدة بنود من الدستور الليبرالي الذي صُوّت عليه بعد سقوط حكم فارغاس سنة ١٩٤٦ . ذلك ان المتصرين ، المولعين بالصيغ القضائيـــة ، استولوا على « السلطات الدستورية الملازمة لكل ثورة » ، وبرروا التطهيرات البوليسية بعدد من بنود تلك الوثيقة .

وسمح بموجب هذه الوثيقة لرئيس الجمهورية، الذي كان مقرراً انتخابه بعد أسبوع واحد ، بتعليق الحقوق السياسية لأي مواطن ، بعـــد محاكمة مختصرة

يعقدها مجلس الامن القومي في جلسة مغلقة . ولم يعط للمتهمين حق الدفاع عن انفسهم ، كما لم يسمح للمحاكم العادية بالنظر في الاحكام الصادرة عنها .

ولم يتوان الماريشال كاستلو برانكو عن استخدام بعض السلطات غير العادية . فقد حُدّدت مدة ستة أشهر للعمل بالوثيقة اللادستورية ، لكن قبل انتهاء هذه المدة ، جرّد ماتزيد على ٥٠٠ شخص من حقوقهم السياسية وطرد آلاف الاشخاص بما فيهم حوالي الفي ضابط من الخدمات العامة . كما تعرضت جميع فروع الادارة لتحقيقات اللجنة العامة للتحقيقات ووكلائها ، الضباط المسؤولين عن لجنة عمليات التفتيش البوليسية العسكرية (I. P. M.) . ومع تقدم التحقيقات ، كان القضاة العسكريون يجدون ثغرات جديدة لتحكماتهم . وهكذا ، سمح تفسير مرن لقانون العقوبات العسكري لرؤساء لجنة عمليات التفتيش البوليسية العسكرية بالاحتفاظ بأي شخص رهن الاعتقال مدة خمسين يوماً دونما حاجة الى تبرير اعتقاله . ولما كان كل من رؤساء لجنة عمليات التفتيش يملك ذلك الحق ، ظل بعض المساجين يمرون من عقيد الى آخر دون أن يحاكموا .

ان التحكم يقودنا احياناً الى حيث لاندري . فقد وقع ابن الجنرال تورينو دي ريزندي ، القائد الاعلى للجنة التحقيقات العامة ضحية جهاز والده التفتيشي . فبعد اعتقاله في مدينة ريسيف حيث كان يعمل كمدرس اقتصاد ، اتهم بنشر افكار « هدامة » في صفه ، وتعرّض للمعاملة التي أخضع لها مئات السجناء الذين كانت ثكنات المدينة تغص بهم ، وسجن في الزنزانات القذرة ذاتها .

ولكي نتمكن من اخذ فكرة عن القيمة القانونية للمحاكمات التي عقدها العسكريون ، يكفي الاطلاع على نصين ، احدهما وردنا من ولاية غوياس المركزية المجاورة لبرازيليا ، والآخر من المنطقة العسكرية السابعة ، أي من شمال شرقي البرازيل .

ويحمل الاول الذي استخدم بين اثباتات اخرى لادانة الحاكم مورو بورجيس، توقيع العقيد دانيلو كونها مياو ، المسؤول عن عمليات التعذيب التي تعرض لها عدد من مساجينه . وقد ورد فيه حرفياً بين اتهامات عديدة اخرى جديرة بكتاب منتخبات « لقد اصبح في حكم المؤكد أن الدكتور رودولفو داكوستا اي سيلفا يعيش حياة زواج غير شرعي ، مع الشريعة الحمراء التي تمليها روسيا اللينينية . » اما النص الثاني الذي حصلت على نسخة عنه من الكاتب بالعـــدل في ريو غراندي الشمالية ، فيتهم ستين شخصاً بالخيانة العظمى ويطلب معاقبتهم بالسجن لمدة ثلاثين عاماً . وينتهي بالخاتمة التالية : « وبهذه الطريقة ، كما يظهر في لجنة عمليات التفتيش البوليسية العسكرية التي تقدم الأدلة لاثبات الاتهام ، كان المتهمون الستون المدونة اسماؤهم أعلاه ، والشيوعيون النموذجيون ، يحاولون في ميادين عملهم المختلفة : مديرية ناتال والموانىء البحرية ومكاتب البريد والسكك الحديدية في شمال شرقي البلاد وداخل الدولة حيث برزت الاتحادات الفلاحية الذائعة الصيت والتي كان يشرف عليها الشيوعي الشهير ايضاً فرانسيسكو جولياو ، يحاولون بواسطة الاحتيال تقويض الاخلاق والاقتصاد في شمال شرقي البلاد ، وتصديع الوحدة الوطنية التي كانوا يحاولون شيئاً فشيئاً القضاء عليها ليتمكنوا من الانتصار في نفس الوقت الذي كانوا يخططون فيه لمهاجمة النظام السياسي والاجتماعي في حركة ابادة مشينة ، معتمدين المساعدة الفعالة من جانب الشيوعية ، ذلك السرطان المظلم الذي يحيط بأذرعه كل قوة حية ، وحتى أحشاء الأمة . وباء لا حدود له ، وأرَضَة يقرض الظلمات متخفياً وراء ستار الجريمة ، هذه هي الشيوعية . انها تهاجم جسد المجتمع وتحيله الى هيكل عظمي ، مثل حيوان مصاب بالطاعون . لذا يجب ادانتهم استناداً الى الادلة الموجودة ضد جميعهم في سجلات منظمة عمليات

التفتيش البوليسية العسكرية ، دون ان ينطوي ذلك على اي اضطهاد أو سوء نية من جانب وزارة الشؤون العامة التي تأسف لاعمالهم جميعاً ، لكن تطالب بادانتهم كشرط أساسي للمحافظة على المجتمع . »

ليس على القاريء أن يتعجب من عدم اكتشاف المعنى الصحيح الكامن وراء ذلك الاتهام . ففي البرتغالية ايضاً ليس له أي معنى ... وكل ما يمكننا فعله هو أن نأسى لهذين المسكينين ماركس وانجلز اللذان سيتقلبان دون شك في قبريهما لدى سماع نظرياتها تُعرّف بأنها « أرضٌ يقرض الظلمات ... الخ الخ » لكن المأساة الحقيقية هي ان نحاكم كائنات بشرية وتدان استناداً الى استنتاجات كهذه .

ولم يرتو الظمأ البرازيلي الى الاستبداد في الاشهر الستة التي حددتها الوثيقة اللادستورية الأولى . فأصدرت وثيقة ثانية بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٦٥ تخوّل المارشال كاستللو برانكو سلطة تعليق الحقوق السياسية وطرد الموظفين دون محاكمة ، وتخوّل القضاء العسكري صلاحية محاكمة المدنيين ، وتنص على الغاء الانتخابات الرئاسية المباشرة وحل الاحزاب السياسية . كما اصبح بوسع المارشال كاستللو برانكو بموجب تلك الوثيقة حلّ البرلمان إذا ما تعذّر التعامل معه ، وهذه فرضية مستبعدة جداً ، لكنها تحققت في شهر تشرين الاول سنة ١٩٦٦ عندما رفض مجلس النواب قبول تعليق الحقوق السياسية لخمسة من اعضائه ، فعطّل البرلمان حتى شهر تشرين الثاني حين عاد فاجتمع للتصويت على دستور تضمّن نصه قرارات تأسيسية استبدادية والغيت مبادىء الدستور القديم الديموقراطية التي لم يكن المارشال كاستللو برانكو بطبيعة الحال راضياً عنها .

وبالرغم من جميع هذه الاجراءات القضائية ، لم يطمئن العسكريون ،

وربّما أصابهم مثل جميع الناس شيء من الدهشة من ضعف ردّ فعل جماهير الشعب التي كانوا يدوسون حقوقها . فأضافوا الى ترسانة قوانينهم قنبلة جديدة ـ قانون أمن الدولة ـ الذي أصدره الماريشال كاستللو برانكو في ١٣ آذار سنة ١٩٦٧ ، قبل ان يرفعه الماريشال كوستا اي سيلفا (الدينا في البرازيل، حسب الاحصائيات الاخيرة ، ٩٦ ماريشالاً في جيش تعداده مائة ألف رجل) الى منصبه بيومين. ويتصف هذا القانون بالغرابة لأنه أعدّ بكامله تقريباً على يد مخططي المدرسة الحربية العليا . ويبدأ بتعريف الأمن القومي بأنه حماية « الأغراض القومية » لكنه لايعطِ هذه الاخيرة أي تعريف . ثم يتحدث عن جريمة « الحرب النفسية العدائية » ويقصد بها استخدام الدعاية والدعاية المعاكسة الذي من شأنه ان يثير عند الاجانب ، اصدقاء كانوا أم أعداء أم محايدين، مشاعر وأفعالاً قد تخلف بعض الآثار على أرض الوطن ، ويخفي ذلك القانون مفاجآت اخرى . فهو لايعتبر كل معارضة سياسية قانونية عملاً خارجاً على القانون فحسب ، بل وينص على وجوب معاقبة أي متهم حتى قبل محاكمته . ويقول البند ٤٨ منه انه ابتداء من اللحظة التي يتسلم فيها القاضي شكوى ضد أحد المواطنين ، يجب فصل المتهم من عمله إن كان مستخدماً في مشروع خاص ، ومن وظيفته اذا كان موظفاً حكومياً ، حتى تبرأ ساحته .

وهكذا أطبق قانون أمن الدولة كلابات الديكتاتورية على البرازيل . فقد سمح ببرلمان مجرّد من اية سلطة ، خلق الخوف فيه اغلبية حكومية متينة . كما سمح للمعارضة ببعض الخطب ، شريطة ألا تلقى في اجتماعات شعبية من التي تعتبر « هدامة » . واحيط توزيع الصحف والنشرات بمراقبة شديدة بموجب قانون الأمن القومي ـ تحاكم الجرائم المرتكبة بواسطة الصحافة بقساوة أشد ـ كما فرضت

الرقابة على الاذاعة والتلفزيون . لكن لم تفرض بالمقابل أية رقابة على نشر الكتب؛ وذلك التغاضي سهل الادراك في بلد نصف سكانه اميون وقوة الجماهير الشرائية فيه متدنية الى مستوى المجاعة .

والآن ، وبعد أن حطمت الحركة العمالية والفلاحية ، واوقفت المناقشة الايديولوجية حول المسائل القومية ، واضطهدت حركة التعليم الاساسي وشتتت منظمات الشبية والمثقفين ، اصبحت الطبقات الحاكمة تتمتع بأمن هو من خصائص المقابر . انها لاتسمع سوى صوتها وتظن ان صوت الشعب قد اسكت الى الأبد. وتدخر ثكناتها بالصواريخ والدبابات والاسلحة الامريكية . وتفيض مكاتبها بالقوانين الاستثنائية . لكن الرعب مسيطر عليها ، بسبب ذلك على الارجح ، ليلاً ونهاراً .

ان خوف المتعسفين لايبدو له من مبرر الا على المدى الطويل . فبديهي انه يستحيل إبقاء شعب تعداد سكانه ٨٠ مليون نسمة تحت نير نظام تعسفي وشرس الى الابد . الا أن حظ الثورة على السلطات الحاكمة يبدو ضئيلا في الوقت الحاضر في البرازيل . فاليسار مازال منقسماً . ولم يجد أنصار الزعماء المنفيين الوحدة والتنظيم اللازمين لمكافحة النظام البوليسي . وتتخذ منظمة العمل الشعبي الثورية المنبثقة عن اليسار المسيحي مواقف راديكالية عنيفة الى درجة لم تتوصل معها الى اقناع الجماهير — وامريكا الجنوبية هي القارة الوحيدة المتخلفة والتي يمكن للثورة أن تتم فيها تحت التأثير المسيحي . لكن هذه اللوحة المتشائمة لاتعني بالضرورة استحالة الثورة على السلطة . فعاجلا أم آجلا ستشتعل هذه الثورة في البرازيل لان من اكبر عوامل نجاحها عمى الطبقات الحاكمة ومفكريها اليمينيين ومساعديها العسكريين . فهي لاتدع للشعب أي اختيار آخر .

منشورات وزارة الثقافة - دمشق

مصير قارع طبل

تأليف الكاتب السوفييتي

أركادي غايدار

ترجمة: هشام الدجاني ★ مراجعة: يوسف الحلاج

ضم الكتاب ثلاث قصص

- مصير قارع طبل
- مصرع السرية الرابعة
- نقطة الهدف

طبع وتوزيع دار دمشق

فن القيادة

من مذكرات
المارشال مونتغومري

ترجمة : عيسى عصفور

يقول أحد القادة في مذكراته إن دراسة التاريخ قد علمته أن « القائد هو الرجل الذي يملك القدرة على جعل الآخرين يفعلون مالا يريدون ان يفعلوا ، وعلى جعلهم ينسجمون مع مافعلوا » .

وربما كانت « القيادة » اعقد من أن يسعها هذا التعريف الموجز ، فضـلاً عن انها غالباً ماتطلق بشكل غامض لاتؤدي فيه معناها التام. وعلى ذلك يبدو لي أن أعرف « القيـادة » بأنها « الموهبة والقدرة على توجيه الناس ،من رجال ونساء ، الى هدف مشترك ، كما انها الخلق الذي

يوحي بالثقة » . على ان امتلاك هذه الموهبة لايكفي ، وعلى القائد أن يكون صادقاً مع مرؤوسيه وأن يفضي اليهم بالحقائق ، وإلا فانهم لن يلبثوا أن يدركوا ذلك فتبدأ ثقتهم به بالتناقص . إني لم أكن اقول لجنـودي في الحرب « كل » مـا هو حقيقة ، حرصاً مني على سلامة العمليات ، إلا أني كنت اقول لهم كل ما ينبغي ان يعرفوه من أجل تنفيذ مهامهم تنفيذاً فعالاً . غير ان ما كنت اقوله لهم كان دوماً حقائق ، وكانوا يعرفون ذلك ولذا نجمت عنه ثقة بيننا متبادلة .

ان القائد العسكري الناجح ينبغي أن يسيطر على الأحداث ، فان تركها تسيطر عليه فقد ثقة جنوده فلم يعد قائداً ناجحاً .

ان احترام القائد للحقيقة قولاً وعملاً يكسبه نفوذاً فعلياً يتناسب أثره مع شخصيته وما يغمر قلبه من حماسة وما ينبعث منه من حيوية تنتقل الى قلوب مرؤوسيه . وفي اعتقادي انه ينبغي على القائد ان يعرف هدفه ، وهل سيمضي في تحقيقه حتى النهاية ، وهل يملك الموهبة والعلم والخبرة ، وهل يتخذ قراراته متحملاً مسؤوليتها كاملة ؟ ان مسألة « التصميم في اتخاذ القرار » مسألة حيوية ، ولئن كانت النزعة الحديثة تميل الى عدم اتخاذ القرارات والى إرجائها أملاً في أن الظروف ستسوي الأمور ، إلا ان السبيل الوحيد للقائد العسكري هو التصميم في العمل وهدوء الأعصاب في الأزمة . ولا اظن ان هذا المبدأ غير ضروري بالنسبة للقائد السياسي ايضاً .

على القائد ان يعرف ما يريد وأن يرى هدفه بوضوح ثم يندفع الى بلوغه ، وان تكون توجيهاته واضحة وأوامره صارمة ، وان يخلق بالضرورة جواً ملائماً يعيشه مرؤوسوه ويعملون فيه . واني لأعرف قادة كانوا يرون انهم اذا فرغوا من إعداد خططهم واصدار اوامرهم لم تبق بهم حاجة الى المساهمة في التنفيذ سوى إمداد

المعركة بما لديهم من احتياط . وليس لعمري من خطيئة اعظم من هذه. ان المعركة الحديثة يمكن ان تخرج بسرعة عن الخط المرسوم لها . ولكي ينجح القـــائد العسكري عليه أن يضمن منذ البداية اشرافاً حازماً على آلته الحربية؛ وهذا مايكفل لقطعاته ان تحتفظ بالتوازن والانسجام وأن تنمي طاقتها القتالية الى اقصى حد . على ان هذا الاشراف لا ينبغي ان يعرقل مبادهة المرؤوسين اذ ان هذه المبادهة هي التي تربح المعركة في النهـــاية . وانما يكون الحزم ضرورياً لسلامة الخطة الاساسية من ان تنسفها الآراء الشخصية والأوامر الفرعية في لحظة ما من لحظات المعركة . ان العمليات يجب أن تدار وفق خطة للعمل محدودة سلفاً وإلا فان ادارتها وفق الآراء الفردية يعرضها لخطر قد يؤدي الى نقل زمام المبادهة الى يد العدو.

ان الخطة الاساسية لا ينبغي ان تكون من الصلابة بحيث لا يستطيع القائد الأعلى ان يعدلها او يجعلها ملائمة لما يستجد من ظروف ؛ الا انه لا يجوز ان يكون لأحد سواه - ولا سيما عدوه - سبيل الى تعديل الخطة وفق مشيئته .

وعندما تبدأ العمليات الفعلية ويجتمع القائد الى اركان حربه والى قادة الوحدات للدراسة والمناقشة ينبغي له ان يكون عالماً بما يريد ان يفعل وبما يمكن ان يفعل. أما أن يجتمع اليهم كيما يجمع افكاراً وآراء فتلك صفة القائد الضعيف.

ولا يكفي ان يصدر القائد امراً بل يجب ان يتأكد من ان هذا الأمر قد نفذ بمثل الروح التي صدر بها. وبعد أن يحدد الخطوط الرئيسية لخطته وطريقة تنفيذها ، عليه ان يصوغ بنفسه الاوامر الاساسية والتوجيهات العملية وألا يترك ذلك لاركان حربه ومرؤوسيه فهؤلاء انما ينصرفون الى عملهم التفصيلي المستند الى اوامر القائد الخطية، وبذلك تنزل الاخطاء الى حدها الادنى، وذلك كان اسلوبي في العمل منذ ان كنت قائد كتيبة .

... ان فن القيادة في الحرب يقوم على ادراك ان ما من موقف معين يماثل ابداً موقفاً آخر ، وينبغي النظر الى كل منها على أنه مسألة جديدة تستوجب حلاجديداً تاماً . وكنت اعتقدوماً ان الجيش ليس مجموعة من الرجال والدبابات والمدافع والرشاشات فحسب ، وان قوته لا تنجم عن عدد رجاله واسلحته فقط ، وانما هو في حاجة الى قوة اضافية تصدر عن معنوياته وعن روحه النضالية وعن الثقة المتبادلة بين الرؤساء والمرؤوسين .

ان الانسان هو المادة الأولية التي يستخدمها القائد العسكري ، وهذا المبدأ صحيح ايضاً في الحياة المدنية . وقد لاحظت ان بعض مديري المؤسسات الصناعية لا يراعونه دوماً فهم يعتقدون ان موادهم الأولية هي الحديد الخام والقطن والكاوتشوك لا الانسان . كما ان بعض القادة العسكريين قد اغفلوا احياناً هذه الناحية الجوهرية فكان ذلك سبب فشلهم . والانسان هو العنصر الاساسي في تركيب كل جيش ولكي يمكن الافادة منه ينبغي فهم الطبيعة البشرية ، فاذا كانت صلتك بجنودك يعتريها الفتور واللامبالاة فلن تفيد منهم شيئاً ، اما اذا شعروا ان مصالحهم مصونة لديك فانك ستجني بهم افضل النتائج . ان الحالة المعنوية للجندي هي اهم عامل حاسم في الحرب ، وخير وسيلة لرفع حالة الجنود المعنوية هي الانتصار في المعركة . ان القائد الناجح هو الذي يربح معاركه باقل الخسائر ، ومع ذلك تظل الحالة المعنوية عالية ولو عظمت الخسائر اذا كان النصر نتيجة المعركة . واذا رأى الجنود ان ارواح الضحايا لم تذهب هدراً وان العناية الكافية قد بذلت للجرحى وان جثث القتلى قد جمعت ودفنت باحترام .

ومن الجوهري أن نعرف أن الجنود يختلفون بعضهم عن بعض ، فمنهم من يفضل القتال ليلا ومنهم من هو صالح للقتال نهاراً ، كما يتفاضلون حسبما تكون

المعركة متحركة أم قتال تمركز ، وقل مثل ذلك في الضباط القادة اذ ينبغي أن يتم اختيارهم حسب طبيعة المهمة الموكولة اليهم . ولقد كنت دوماً أعنى بانتقاء الضباط والجنود على هذا الأساس ، كما كنت أقضي ثلث ساعات عملي في دراسة أوضاع الضباط لانتقيهم بمزيد من العدالة والأمانة . ومعياري الوحيد في ذلك هو الجدارة والقدرة على القيادة والاستعداد لإنجاز المهمة ، مع حرصي الشديد على الأخذ بيدهم لرفع مستواهم ، ايماناً مني بخطأ من يتصورون أن الضابط الذي يرقى الى رتبة أعلى لايظل في حاجة الى أن يتعلم كيف يتصرف في وظيفته الجديدة . فَرُبَّ ضابط تراه ناجحاً مادام يعمل في إمرة ضابط كبير مرموق ولكن كيف تراه يتصرف لو اصبح هو القائد الاعلى ؟ ان المسألة تختلف بين أن يكون المرء مستشاراً بلا مسؤولية فعلية ، وبين أن يكون هو الرئيس المسؤول عن اتخاذ القرار النهائي . وهذا صحيح في الحياة المدنية صحته في الحياة العسكرية .

لقد كان معياري أبداً في زمن الحرب أن الانسان هو المعول عليه . فالقادة من جميع الرتب ينبغي أن يكونوا أهلاً للقيادة وأن يتمتعوا بالمواهب والصفات التي تجعل مرؤوسيهم يثقون بهم ، وأن يتحلوا قبل كل شيء بمواهب الشجاعة والحزم والتصميم التي تبقيهم متيني الأعصاب عندما يتأزم الموقف .

ولا غرو في أن من أبرز صفات القائد الاعلى القدرة على اشاعة الثقة في الخطة وفي العمليات ، حتى عندما يكون هو نفسه غير مطمئن تماماً الى النتيجة ، والقدرة على وضع كل رجل من رجاله في مكانه المناسب وفي الوقت المناسب . ولكي تمارس ذلك على مرؤوسيك عليك أن تراقب عن كثب معنوياتك الخاصة ، فالمعركة انما هي صراع بين عزيمتين : عزيمتك وعزيمة قائد جيش العدو ، فاذا هلع قلبك حين تبدو النتائج غير مضمونة فربما انقلبت المعركة لصالح عدوك .

ومن الأساسي جداً أن يتجنب القائد الاعلى الغوص في التفاصيل ، وانما عليه أن يصرف جلّ اهتمامه الى المسائل الكبرى وأهمها الطريقة التي ينتصر بها على العدو . أما اذا استغرق في التفاصيل فلن يتسنى له ذلك . فعليه أن يترك الشؤون التفصيلية لاركان حربه ليظل هو الصخرة المنيعة التي يستند اليها ضباط الاركان . وإني لأرى أن هذه المبادىء تصح كذلك في الحياة المدنية ولا سيما في السياسة ، وأن الوزراء كبار القائمين على الادارة الحكومية لايفقهونها أو لايبالون بها . وما أجدر الكثيرين من رجال السياسة القائمين على شؤون الحكم أن تنقش على قبورهم العبارة التالية :

«هنا يرقد رجل أضناه فرط انشغاله بالتفاصيل فلم يجد وقتاً للتفكير لأنه كان يقرأ جميع الأوراق . لقد كان يرى كل شجرة في الغابة ولكنه لم ير الغابة كلها قط » .

اما في مجال العمليات فعلى القائد الأعلى ان يستشف أفكار عدوه وان يستشعر سلفاً مايمكن ان تثير تحركاته من ردود فعل لدى العدو ، فيتخذ التدابير السريعة للحيلولة دون تدخل العدو في خططه الخاصة . ولذا ينبغي ان يكون تفكيره واضحاً سليماً بحيث يستطيع تمييز ماهو جوهري في مجموعة العوامل التي تعج بها كل قضية . ولهذا يحسن به ان يكون معتدلاً في الشرب والتدخين . اما أنا فاني لاأدخن ولا أشرب . واعتقد أن الافراط في الشرب والتدخين يعكر صفاء الذهن . وكيف لك ان تربح معركة اذا كانت قواك الجسمية والفكرية متعبة منقوصة ؟

ولا بد قبيل المعركة من ان يشرح القائد الأعلى لضباطه القادة أهدافه وخطة سيرها كي يعمل الجميع بانسجام وينقلوا الى جنودهم الشعور بان جهد كل

منهم هو جزء من المجهود العام ، وان اسلوبه في القتال يمكن ان يكون له أثر في المعركة كلها . وهكذا ينطلق الجيش الى القتال وهو يعرف ما يريد ان يفعل ، ويعرف ماتنتظره منه قيادته وما ترجوه منه أمته . وعندما يرى فعلاً ان المعركة تسير وفق ماقيل له فان معنوياته ترتفع وثقته بقيادته العليا تزداد . وهذا عامل عظيم الشأن في معارك المستقبل .

أيتها الأكواخ

خليل خوري
— بيروت

مثلما تمشي الإماءْ
موهقاتٍ تحت سوطِ القهرمانْ
مثلما يسعى ، وتعوجُّ به الدربُ ، الغبيُّ السرطان
كانت الأيام تمشي للوراءْ
وعلى الأيام آثارُ دماءْ
تنزف الأيام كانتْ ، تتهاوى من عياءْ
بين حدّين من التاريخِ ،
أبصرت أنا الأيام تمشي القهقرى
في حزيران الذي بشّرَ بالتمّوز عاماً بعد عامْ
كانت الغيمة عاقرْ
عاقراً كانت ميازيبُ السماءْ
يوم مدّت عمرها بالشوقِ أرحامُ البيادرْ
كانت الغلّةُ شوكاً وزؤان

كان فحُ الجوعِ في قلبِ الثرى
كانت الأيام تمشي القهقرى
جثثاً كانتْ ، نعوشاً في قطارات الزمان
ركبها المدحور محوور الأوام
وأنا اعدو لهاثاً خلفها أعدو لهاثاً أحمرا

* * *

ضارعاً تهوب مني كانت الأيام تترى ، بُحّ صوتي
يتبُها الستة أيامٍ ففي تدمى لهاتي ، بُحّ صوتي
من ترى يوقفُ موتي
من ترى ينزع من صدري الخناجر
من ترى يجترحُ المعجزةَ اسمعني ، اسمعيني
يتبُها الأكواخُ ... من .. من يوقف الأيام ، صوتي
بُحّ ، طروادةُ تنخاكِ ، اسمعيني ، واسمعيها ،
امسكي مركبة الأيام ، انخاكِ ادفعيها للأمام
يتبُها الأكواخُ في طراودة السماء برقٌ وزماجر
أنتِ ، هُبّي ، وحدكِ الآن هنا قدرةٌ قادرْ
عجمتْ عودكِ في محرقةِ الموتِ الأداهر
ولها أنتِ لها لا يوقف الأيام إلاّكِ ، اسمعيني
كل طروادة صبّت في يميني
شوقها ، هبّي اسمعيني
أوقفي مركبة الأيام ، هبي ، وادفعيها للأمام .

القدس

أحمد المجاطي
– المغرب

رأيتك تدفنين الريح تحت عرائش العتمه
وتلتحفين صمتك ، خلف أعمدة الشبابيك
تصبين القبور وتشربين ، فتظمأ الأحقاب
ويظمأ كل ما عتّقت من سحب ومن أكواب
ظمئنا والردى فيك
فأين نموت يا عمّه

* * *

تحز خناجر الثعبان ضوء عيونك الأشيب
وتشمخ في شقوق التيه ، تشمخ لسعة العقرب
وأكبر من سمائي ، من صفاء الحقد في عيني
أكبر وجهك الأجدب
أيا باباً إلى الله ارتمى . من أين آتيك

وانت الموت ، أنت الموت
أنت المبتغى الأصعب

* * *

مددت اليك فجراً من حنيني للردى
وغمست عواثي ببطن الحوت
فأية عشوة نبضت بقلبي في دم الصحراء
وأي رجاء
تفسّخ في نقاء الموت أطفأ ظلمة التابوت
في عيني
فجئت إليك مدفوناً
أنوء بضحكة السلطان
وبؤس الفجر في وهران
وصمت الرب ابحر في خوائب مكة
أو طور سينينا

* * *

وتلتفتين ، لا يبقى مع الدم غير فجر في نواصيك
وغير نعامة ربداء
وليل من هدير الموت قصّ جوانح الخيمة
تصين القبور وتشربين فتظمأ الصحراء
ظمئنا والردى فيك
فأين غوث يا عمّه .

رجل فلسطيني

فرج صادق مكسيم
القاهرة

أنا لا أظنُ أنّ بَسمتي
تحوَّلتْ إلى شماته
فكلُّنا خُطاه
أنا لا أظنّ أن غصتي
وحُزن قصّتي
أفقدني الايمانَ بالنجاهْ
أنا لا أظنّ أنني أحتقر الوجود
فلا تزالُ شَجرَةُ الحياه
تنمو هُنا ..
في ظلِّ ريح الموتْ
ولا تزالُ أنتَ يا إلهنا الودود
مدّخراً عدالتكْ

* * *

فان تكنْ عِصابةُ الشيطانْ
قد سَرقتْ جوهرتي القمريّه
وحرّشتْ صبيانَها لتشنقَ الأهلّهْ
فجهّزوا التابوت للأفراحِ .. وهي طفلَه
فلا يزال شجرُ الغابات .. يحمل العصيّ
ولا تزال رغبةُ الانسانِ في البقاءِ
تبدعُ السلاح
ولا يزال القمرُ الصديقْ
يقطع الطريقْ
على الذين يغرسونَ الشوكَ في ابتسامةِ الرحيقْ
ولا يزال قلبُ العالمِ المكدودْ
منحنياً أمام عرشِ العدلْ
ولا تزال أنتَ يا إلهنا الودودْ
مدّخراً عدالتكْ

* * *

حَضارة الانسان .. مثل الشمس .. لاتموتْ
قد حاول التتار ذات يومٍ .. خنقَها
فاحترقوا في سرّها العظيم
وانتصرت حضارةُ الانسان ..
عَرَقُ المناضلين .. زهرةُ الوجودْ
من أجل هذا يطمئنّ قلبيَ الشريدْ

على الذي أودعته في بيت لحم
فالجسد الذي ينبض بالحياة
يطارد الجرثومة التي تقتحمه
والكون حيّ
وها أنا أصغي لقلبه السعيد
في صوتك المضيء .. يا إلهنا الودود

ألف ليلة وليلة

راضي صدوق
ـ عمان

شهريار :

يا عبدَ الخير ، اجرْني
من غيرُكَ ، في هذا الزّمن الملعونِ ، يُجيرْ ؟
أبناء الشيْطانِ
سرقوا سلطاني
باعوني
باعوا تيجاني
قتلوا جاريتي
وأراقوا خمرةَ خابيتي
ما عاد أبو نوّاس يُغنيّ
فالقصْرُ خواءْ
يا عبْدَ الخيْرِ أجرْني
بور كنت تراباً وسماءْ

العبد :

أذني ، ياسيّدَ أمجادِ الماضي
مازالتْ تلسعني
بَصَماتُ النخّاسِ تُوقّع لي أذني
وسياطُكَ يارب التيجانِ
حفرَتْ في جسدي ألفَ طريق
أيّامَ أبو نوّاس يُغني ..
والجاريةُ الرّقطاءُ تلوّى في الايوانِ
وحواليْكَ ألوفُ الخصْيان
وأنا المنبوذُ المقهورُ
دمعي ودماني في الكاساتِ خمورُ
ولقد كنتَ تقهقه يا ربَّ الأربابْ
تأنفُ أنْ تبصقَ في وجهي
أنْ تلمسَ جسَدي بحذائكَ ، تدفعُني الحجّاب :
« يا عبْدَ السّوءِ ، تمزّقْ
ما أروع أن يتمزّقَ عبْدُ السّوء
اللحمُ الأسودُ ملعونٌ ، لو شاءَ اللهُ لَلوّنَ
هذا اللحمَ الأسودْ
يا جلاّدَ السّوءِ ، سياطَكَ ، أطعِمْها هذا
الزّنجَ الموْبوءْ
أطفىءْ في عينيْهِ بياضَ الضّوءْ

اختمْ هذا العبدَ الملعونَ بختمِ السلطانِ
أوثقْهُ هُنا . لا يبرحْ أبداً ديواني . »

شهريار :

بارَكْتُكَ ، ياولدي ، بالختمْ
سطّرْتُ على الجسدِ الطّاهرِ بالدّمْ
أمجادي وخلودي
والجلاّدُ الملعونُ أساءَ الفهْمْ
ما كنتُ أريدُكَ ، يا ولدي ،
بالسّوطِ ، أجِرْني .. يجْزِيكَ اللهُ .
ما زال لهيبُ النّارِ بعينيكَ يخضُّ ضميري
ونشيجُكَ يحفرُ لي جسدي
ويهزُّ شعوري
ياويلَ الجلاّدِ الملعون .. الـ .. لو ألقاهُ !

العبد :

قهقهَه .. قهقهَه ..
ياجاريةَ القصرِ أجيري مولانا ..
ياذات الأردافِ المغسولة بالخمرِ
يا بنْتَ الشّيْطان
أجيري السّلطان !
مسكينٌ ، مقرورٌ ، كالهرّ

لا صولة .. لا تيجانا ..
ما أنْعَنَ تَصْرِيفَ الدَّهرِ !

* * *

يلتفت لشهريار :

يا سيّدَ آلامي ...
عفواً ، يا سيّدَ كلِّ الآلامِ
يا سيّدَ كلِّ الآثامِ
ذُقْ معنَى الإذلالِ ولو مرَّة ..
معنى أنْ تَنْسحقَ الأرواحُ الحُرَّة
معنى أنْ يتعذَّبَ إنسانُ
لا ذنبَ سوى أنْ يلهوَ سلطانُ !
لكنْ ،
هل يخفقُ للظّالمِ قلبٌ ؟
هل تنبضُ في أعماقِ الحقدِ ينابيعُ الحبِّ ؟
هل يقوى الألمُ الخالدُ أنْ يغسلَ كلَّ الأدرانِ السّوداءْ ؟
الأدرانِ الموروثةِ ربّاً عن ربٍّ ؟
يا سيّدُ يجزيكَ اللهُ ..
إنّا لا نملك أنْ نمنحَ غيرَ الحبِّ
والصّفحَ بطُهْرٍ وصفاءْ
فانْعَمْ بالعيش كما تَهْوَى
فالعالمُ رحْبٌ وكبيرٌ لا يبخل أنْ يُسعفَ أيَّ جريحْ

العالمُ ، يا سيّدُ ، قلبٌ مفتوحْ
لكن ، إياكَ وأنْ تطمْح للقممِ الزّرقاءَ
أن تحلمَ ببساطِ الرّيحْ ،
تهُوّمُ فيه ، لتنبشَ عن تاجٍ أو جاه
يا سيّدُ إذهبْ . يجزيكَ اللهْ !

الى طفلي

عبدالرحمن فرندار

طفلي الذي ماناماإلا باسماً وما صحا إلا ضحك

طفلي ياضاحك يالاهي
يانعمى من عند الله
ياضمة أحلام الأمس
وتأمل نفسي في نفسي
عيشي لولاك ، أكان سوى ليل يزخر بالأشباح ؟
أجتر على مضض فيه قلقي ، وأداري أتراحي
واجوع من دن الذكرى
راحي
وأحطم أقداحي
بيتي لولاك أكان سوى كهف للوحشة والهم
أقبلت ، فهوّمت النعمى كفراش يرنو للنجم

وترنحت البشرى نشوى كالزهرة تبسم للشمس
أقبلت فأشرق في نفسي
فجو ونأى عني بؤسي
وأتيت فهفهف في داري عطر وزهت بالأزهار
بالبهجة بالبشر الهامي يملأ بالغبطة أيامي
أيقظت الفتنة فيها من شرخات تنعم بالحلم
وترف الطير تحييها وتزف لها عذب النغم
فتخف اليها في طرب
لتبادلها حلو اللعب
وتعود الي لتدعوني بحديث منغوم الكلم
بحديث ونان الجرس ينساب ويغرق في حسي
وترن بأعماقي .. بابا كنداء من دنيا الغيب
يطوي المجهول ويحمل في معناه آيات الحب
طفلي ياضاحك يالاهي يانعمى من عند الله
ياضمة أحلام الأمس وتأمل نفسي في نفسي

* * *

أترى خلفتك للانشاء لتبعث أمجاد العرب
إذ كانت رايات الأجداد تكلل هامات الشهب
قد كان محمد يدعو الناس لنشر السلم والخير
للحب لتوحيد الايمان لنبذ الفرقة والشر
أتراني أرى فيك شبابي في لجة عيش صخاب

أبداً لاتهـدأ أو تتعب تسعى في عالمك الأرحب
والحب ينير خطاك إلى إسعاد الأبعد والأقرب
وأكاد أراك أرى نفسي في عيش يطفح بالأنس
ويجلجل صوتك في صخب ليمزق أردان الحجب
بحديث هواك المضطرم بحديث وضّـاء الكلم

وتقول : أدام الله أبي

أترى خلقتك للآمـا ل لعهـد يرفل بالنعم
للنور يلفلف دنيـانا ويجنّبهـا ليـل الظلم
أم للآلام .. لأيـام زرعت خوفاً صبغت بدم
الحرب تروّع ثكلاهـا والنـاس طعام للظاها
والأطفال الملقون على الـ طرقات كمـذعور الغنم
وهناك .. أراك و ياعجبي حيران تزمجر في غضب
بحديث يقـذف بالحمم بحـديث مسموم الكلم

وتقول: جناه علي أبي ...

طفلي يامبعث إلهـامي ياوحي منـاي وأحلامي
لولاك لكانت أيامي قطعاً من عيش قتّـام
فليحفظك الله الحـامي لزمان رغد بسـام

آل آمنة

محمد عبد العزيز الحبابي

عميد كلية الآداب بجامعة محمد الخامس — الرباط

« كلما زدت خطوة ازداد ازلاق أملي ، وشعرت أن الأزقة تلتوي وتتحذلق كأنها تآمرت علي مع كآبة الليل . وجوه المارة بلا تعبير ، كأن شيئاً خفيا قد بهدلها . وجوه صامتة ومبللة . ربما كان التعبير مشيا بالأرجل وقطرات عرق على الجبين وهم يسرعون الى مواعد مع عشقهم ...

ولكن ، هل الجميع يحب وله موعد مع الحبيب ؟؟ »

اهتز كل جسد السيد (الفاروقي آل آمخ) ، في انتفاضة ، فأحس ان الكهرباء قد سالت فيه من أعلى الى أسفل . انها تموجات (التيليباثي) تغمره . بدأ الإرسال . ولكيلا تشوش ضوضاء الطريق على الخطاب الموجه اليه من لدن قرينته (فطومة آل آمخ) ، ابتلع حبة صغيرة من حبات « تركيز الانتباه » فأخذ دماغه يسجل :

– ألو ! قد التقطت ماخطر ببالك . لماذا تغرق في عوالم الماضي : تنظر الى ناس اليوم نظرة رجعية متخلفة ؟ أين لهم العشق ؟ م من أجيال مابعد ٢٠٠٠ وليسوا من جيلنا . انهم لايعرفون الحب . المارة يسرعون في الطرقات فرارا من رتابتها المضنية ، ومن الآخرين : نفس الوجوه ، ونفس القد ، ونفس العرض ، ونفس اللون ... أرأيت لهم شيأ بنا ؟ عندنا : الذكر ذكر ، والأنثى أنثى . اننا نختلف طولا وعرضا ، لونا وثيابا . أما م فقد خرجوا جميعا من قالب واحد ، وبعين الطريقة « الستا ندارية » . العشق كان حق القرن العشرين ، بين جنسين مختلفين ، ونماذج بشرية يمتاز الواحد منها بقسط من الملاحة أو البشاعة (وكل شعيرة يرزقها الله من يأكلها ...) . الحب، لاسبيل اليه اليوم .. كلمة قد اندثرت من قاموس الأجيال الحاضرة ، كما انقرض الكثير من المصطلحات المتصلة بالزواج ، والنسل ، وأعضاء التناسل ، لأن العضو ينعدم بانعدام الوظيفة ..

قاطع الرجل زوجته سائلا :

– وأنت ، ماذا تفعلين الآن ؟

– أحسب اقراص أكل الأبناء الشهرية . لقد أفرغتها من جيبي فلاحظت أنه تنقصني ثلاثة ، ولا أدري كيف حصل الغلط في العد ..

– لافائدة في البحث ! أنت أيضاً مازلت تفكرين بالطريقة القديمة ، طريقة عصر التخلف . عودي الى صيدلية البلدية وخذي ماضاع ! الكل بالمجان !

– لكني أريد أن أعرف كيف ، ومتى ، ولماذا حصل ماحصل .. ؟

– آه ! لم تتخلي بعد عن ذهنية القرن العشرين . لماذا هذا الاهتمام ؟

– لأعرف !

– ولماذا تريدين ان تعرفي ؟

– للمعرفة .

– ولماذا المعرفة ؟

– لأفهم

– ولماذا الفهم ؟

— لاتتعبني ! ان لي بقايا من الأعصاب ، أنا لست من أجيـــال اليوم ، عجل بالعودة الى الدار ، فالأبناء حول الجدة تحكي لهم عن أساطير وغرائب القرن الماضي وهم كالعادة ، يبتلعون كلامها بنهم . إنهم ، كما تعلم ، لايميلون الى شيء : لامشاريع ، ولا شهوات . زمانهم ينساب على وتيرة واحدة لايستملحون الا حديث الجدة وهي تحكي عن « ماقبـــل التاريخ » ، كما يقولون ؛ تحكي عن مشاهداتهـــا في القرن العشرين ...

— آه على حلاوة العبث والمغامرات الغرامية ! كان زماننا لذيذا ، لان في الصراع مقاومة للملل ! ان الأم ليحز في فؤادي أن أرى أبناءنا لاينتظرون مفاجآت ، ولا ينغمرون في مشكلات. حياتهم ككأس ماء صاف ، القعر والأعلى يكونان وحدة متكاملة ، ليس مايعكر البال . آه لوترك لهم العلم غريزة الجنس ، على الأقل !.

— هل تتذكر ماقالتـــه الجدة ؟ « كل ناس اليوم لايموتون ، أما نحن بقايا القرن العشرين ، فسنموت . اذن : نحن لسنا أناسا » .

— ياله من خطأ فظيـع . الجدة المسكينة تستنتج على قدر ماوصل اليه فكرها . نعم ، انه قياس خاطيء ، فنحن م الناس ! نعم ، نحن أناس حقيقيون لأننا خرجنا من رحم بنات حواء . خلقنا من نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ... ونشأنا على المنهج الطبيعي : الصبا ، والمراهقة ، والبلوغ ... الحيضة ، والحمل ، والوضع ... أما أرهاط اليوم ، فالمختبر هو الذي يفرخ النسل . فهم أبناء مصانـع : لاعناق ، ولا قبل ، ولا مني يمنى . فهلم يعيشون على ماولدوا عليه : كل شيء عاد ، لاوجع ولا مخاض ...

* * *

بقيت المحادثة مسترسلة بين الزوجين ، عن طريق الموجات الدماغية ، حتى وصل الفاروقي الى البيت .

تحرص ربة الدار على ان تتصل به من محطة دماغها لتلهيه عن همومه . فكلما خرج الى الشارع ، وارده مرضه العضال المزمن : التفكير في عالم اليوم ، ومقارنته بعـــالم الأمس القريب . شتان مابين العالمين !.. إنها تخاف عليه من الجنـــون ، خصوصاً وان مستشفيات الأمراض العقلية والأمراض العصبية قد دخلت في خبر كان . النـــاس لايفكرون ، ولا يعشقون ، ولا يتصارعون من أجل الغد ، لذا لايمرضون .. عندما تساوى الجميع « ماديا وأدبيا » (عبارة عتيقة ، أيضا) اي عندما انقرضت الفوارق

لم يبق لا أحمق ولا عبقري ، لاطباع سوية ولا طباع مرضية ، فات ، مع الموت ، الفن والفلسفة . ولا شيء من الأشياء قام مكانها .

— ٢ —

التفت حلقة الأسرة حول المدفأة ، وكان عصفور نزيل قفص من فضة يزقزق من حين لآخر زقزقة مثيرة ، وكأنه يشارك القوم حديثهم . من بيت مجاور تأتي أصداء خافتة لموسيقى صامتة ، وأحيانا يتصعد شخير الجد من سرير بالبيت المقابل فيبتسم الأطفال الاثنا عشر ، ويتغامزون .

كانت الجدة تحدثهم . إنها نموذج وحيد « اذا استثنينا زوجها » ممن أطلق عليهم القدامى لفظة « شيوخ » ، وكما تصفها أساطيرهم : شعر أبيض ، وتجاعيد في الوجه ، وانكسار في الصوت ، وضعف في السمع والبصر . اذا أرادت الوقوف استعانت بمن يأخذ بيدها ، واذا حاولت المشي (وقلما تفعل) اعتمدت على عصا .

مسكينة الجدة ! ومسكين الجد ! لقد أتيا العالم على الشكل العتيق . لو أنها انتظرا جيلين لاستفادا من اختراعات العلم المعاصر ، ولوجدا على الطريقة الجاري بها العمل اليوم ، ولكانا على شكلنا .. ولكن .. نعم .. انها يعتزان ماضيهما ولا يغبطان الأجيال الحالية . ربما كانا على حق . فحياتنا (كما يدعيان) غير جديرة لمن عرف الحياة الأخرى . نحن نعيش لأن المخابر صنعتنا في حياد تام عن الحياة . إننا هنا ، وكفى . أما هم فيحيون بما يسمونه الصراع ، والحماسة . إنهم ، كما يقولون ، « يحبون الحياة .. »

* * *

بقي الأطفال ينظرون الى الجدة متأملين في وجهها ، وهي تحكي قصصا عن الماضي .. عن عصر الحرف والصناعة ، أي عن عصر ماقبل الانسان الاصطناعي ، حتى وصلت الى خاتمة الحكاية ، فعقبت :

— إننا لانفرق بين الماء الذكر والماء الانثى ، ولانتحدث عن طفولة الماء ، وكهولته ، أو شيخوخته . والسر في ذلك ان كل حبات الماء ، وقطرات المطر ، وأمواج البحر ، وشلالات الجبال التي تجسد الحركة الدائمة ، والتعاون المستمر . فالماء الراكد ماء منبوذ من المياه ، منفي في المستنقعات ، عقابا له اذ خرج عن الجماعة . انه ماء لايصلح لا للعادة ولا للعبادة . .

قاطعها أحدهم في لهجة يملأها الحنان اكثر من الاحتجاج :

– أنت ، ابتها الجدة ، عندما تعيبين على أفراد جيلنا تشابههم التام ، تتغافلين عن ان ذلك هو مفخرة العلم الذي قضى على كل الفروق بين الأفراد .

اغتاظت الجدة . انها لاتريد ان تتلقى دروساً من الصغار ، او من « الميني – بَشَر » ، كما يطيب لها ان تسميهم ؛ اقتباساً من موضة شاعت إبان مراهقتها ؛ أي حوالي عام ١٩٦٧ ! تلك أيام قد خلت !.. جعلت الجدة حداً « لهرطقة » الولد ، واستأنفت حكايتها ، أو بالأحرى خاتمة الحكاية .

* * *

سكتت الجدة ، وادارت مغزلها مرات متتابعة ثم حدقت ببصرها الى الحفدة ، فرأت أعينهم الصغيرة معلقة بشفتيها :

– أفهمتم معنى ماقلته لكم ؟

– نعم !

– ييس !

– يا يا !

وصاح آخر :

– ياجدتي ؛ ان ماذكرته الآن ، ان هو الا تعقيب على ماحكيته أمس وأمس الأول ، عندماكنت انا غائباً . لذا لم أفهم العبرة مما صرحت به هذا اليوم .

– وانتم أيها الاطفال ، هل فهمتم العبرة ؟

– ييس . تقصدين بالقصة أن ..

فقاطع احد الإخوة :

– لا ! الجدة لم تطلب منك ان تلخص . عليك ان تجيب كالعادة ، بنعم أو بلا . لاتنسوا أننا جيل إليكتروني مفطور على الاختصار والدقة !

فصرخ أحد الأخوة :

– نعم ، لسنا من جيل الجدة والجد الذي يحمل من الحشو والاستطراد أم مافي لغته . أنهما لم يربيا على اعتبار الوقت من ذرات ونور وعلاقات ، بل يقولان ان الوقت من ذهب . .

دخل الأب على الجماعة ، فاظهرت الجدة غبطتها بقدومه . لقد أقلقها الانتظار . انها أم ، ومن لحم ودم ، فيؤلمها الحنين الى « فلذة » كبدها ، وتزن الوقت وباقي علاقاتها به بخفقات القلب . أما الأحفاد ، فلم يشعروا بشوق لأبيهم (الشوق ؟ إنه مرض انقرض مع كل ماانقرض) ، ولم ينتظروا ، لأن كل حبات الزمان من لحمة واحدة ، تسيل دون طعم ، وبلا كثافة .

– لماذا يابني تأخرت هذا المساء ؟

– الأشغال يا أماه ! الأشغال كثيرة !

– ألم تحقق بعد اكتشافك ؟

– لا ! ولكني على وشك تحقيقه .

– أريد ان يتم ذلك قبل موتي . اود أن أفاتحك سرورك وقد توجت أبحاثك بالنجاح .. قل لي ، ياعزيزي ، ماهو بالضبط هدف أبحاثك الحالية ؟ كم من مرة حكيت لي عن ذلك ، ولكن ذاكرتي تخونني ، لأنها بشرية لا إليكترونيـة كذاكرة هؤلاء (مشيرة الى الاحفاد) .

فعقب أحد الابناء :

– نحن ايضاً نريد ان نعرف ماذا تفعل ياأبتاه .

فقال له أخ ، بلهجة كلها لامبالاة :

– ماالفائدة في ذلك ؟ ان البعض منا ، بالرغم من كل ماوصلنا اليه من رقي ، مازال مريضاً بالفضول !

فأضاف ثان ، وهو يتمص حصته اليومية من الطعام :

خذنا معك ، أيها الأب ، الى المخبر لنشاهد أعمالك .

هز الأب رأسه :

– ممكن .

– متى ؟

– غداً ، مثلا .

او كي !

- ٤ -

يدير الأب مخبراً عظيماً بضاحية من ضواحي المدينة . ومنذ اكثر من ثلاثين سنة وهو يقوم بتجارب من نوع خاص .

ان المياه تتبخر او تتجمد ، والاعشاب تحترق ، كل شيء يمكنه ان يتغير أو يدخر بغية استغلاله كطاقة للاضاءة او التدفئة ، او في الصناعات المختلفة . . اما المليارات، من المليارات ، من المليارات من الجمل التي تتلفظها يومياً ، فأين تذهب؟ الى أي شيء تتحول ؟ هل تذوب أم تجمد ؟ لماذا لا تدخر فنستعملها عند الحاجة ، حطباً التدفئة ، او لاستخراج الطاقة الكهربائية ، او لتمزج ، مثلا ، بالاسمنت والحديد لبناء السدود والبروج ؟ يجب ان نبحث عن الكوكب ، أو أي ظرف آخر ، تجتمع فيه الكلمات بعد أن تتلفظ بها الشفاه . هذا هو المشروع الذي يعمل على تحقيقه السيد الباحث آمخ .

افترض البعض ان الألفاظ ، بعد ان ينطق بها ، تتجمع ببرزخ يسمى « السجل التاريخي العام ». ولكن ، بما ان صنف المؤرخين لم يصل الى التعرف على ذلك «السجل» رغم التعاون المتين مع الجغرافيين وأصحاب الاحصائيات، فقد انسحبوا من الميدان. فات التأريخ ، بانقراض المؤرخين . الا ان الفلاسفة ، بالرغم من اننا دخلنا عصر الصمت ، بقوا احياء يرزقون ، اي يتكلمون ، ويتكلمون ، ويتكلمون، بكلامية لا متناهية من القول المجرد الغامض ، ولا يدري احد اين تذهب ، ولا ماذا تصير تلك الأقوال .

* * *

بعد الرحلة الى المخبر ، حيث كان الأب يعطي الايضاحات عن التجارب التي يقوم بها ، وعن الآلات ، طلب منه احد الأبناء :

— لماذا لم يهتم الاقدمون بهذه القضية اهتماماً ملحوظاً ، في القرن العشرين وقبله ؟

تنحنح الأب ، وألقى نظرة عطف على آلاته ، ثم قال :

— نعم ، لقد اهتدوا الى التمكن من عقد زواج بين المكان والزمان ، ومزجوهما فلتنتج عن ذلك ما يسمى بالسرعة : يقطعون المسافات الطويلة ، في وقت قصير ، وعندما يعبرون المسافة ، يعودون فيجدون الطريق والمكان هما هما . اما الكلام الكثير فيطلب الوقت الكثير ، ثم بعد ان يقطع المتكلم قسطاً من الوقت في حديثه ، البطيء او السريع لا يجد من كلامه شيئاً محسوساً قابلا للعد او الوزن . ذا هو المشكل . فكم سمع الناس ، في عصر التخلف ، من خطب فيها الكثير من « حرارة الحماسة » ... وقد افتقدنا تلك الحرارة ولم نعثر عليهـا ، كأن « الجامعة العربية » ، و « اليونسكو » و « هيئة الأمم

المتحدة ، « لم تلق الآلاف المؤلفة من الخطب الرنانة ، أو كأن « حرارتهـــا » لم تكن الا مصطنعة !.. كم من طاقة في تلك الحرارة ، لو كانت صادقة !..

أما اسباب اعراض القوم عن البحث لايجاد الحلول ، فرجعه الى معارضة المؤرخين. لأن جل ماكتبوه ورووه يعتمد على اقوال وضعت وضعا اوضاعت . فما السبيل الى فضح الغفلة والأغلاط والتزوير سوى الرجوع الى الاصل ؟ فكان من المفيد للمؤرخين الا يتعرف احد على مخازن الكلام الملفوظ عبر العصور . ثم اننا نعلم ان الفلاسفة لم يتورعوا عن افراغ الكلام في قوالب من الفراغ ؛ لو ادخرت لكانت فضيحتهم اشنع من فضيحة نقاد الادب ونقاد الفن ...

* * *

تلفت الجد وهو يتكىء على حفيدين من حفدته ، وسعل قليلا ، ثم صرح :

– اكتشافك سيكون بديعاً ، ولكن غير مفيد البتـــة ، مادام المؤرخون قد انقرضوا . ابنـــاء اليوم لا يهتمون بالتأريخ ، ولا بالصدق والكذب فيما قاله النقاد والمتفلسفون . ان الاجيال المصنوعة في المعامل لا تهتم بأبحاثك ..

واضافت الجدة وهي تتحرق أسفاً وخيبة :

– ابناء اليوم ! آه من ابناء اليوم ! انهم لا يهتمون حتى بما هو أعمق وأثمن من النقـــد ، والفلسفة ، والتاريخ : الحب ! آه ، عليك يا زمان الحب ، والغزل والدموع ، والعناق !...

هز الجد رأسه مرات ، وقال ، والسعال يتخلل كلامه :

– الوجدان ، والاستبطان ! .. الشعور والعواطف ..! كل هذا اصبح ألفاظاً بلا رنين .. كلمات جافة .. مفردات يابسة .. نذكرها بحضرة هذا الجيل الجديد، فكأننا ننبش على عظام نخرة ، في مقبرة الظلام ! .. كلمات دون باطن ، ودون صدى ...

تدخل الحفيد رقم ٣ (وهو ، من اربعة امتازوا عن بقية الاخوة بالفضول ، الى حد ما ، وبالكلام ، رغم ان جيلهم جيل عصر الصمت) وقال ، متوجهاً الى الجد :

– انا لا اعارضك ، ولا اقاسمك احكامك ، لأنني اجهل معنى هـــذا الشيء الذي كثيراً ما يتردد ، في كلامك مـــع الجدة او مع ابي وامي ، والذي تسمونه الحب . الحب ؟ ما هذا ؟

أشاح الجد بوجهه عن حفيده رقم ٣ وتجمل بالصبر كيلا يكثر من الكلام الذي

سيذهب حيث لا يعلم احد .. الى ذلك المكان المتستر دائماً والذي يعمل ابنه على الجولة في أغواره .

تشاغل الجد عن الاحفاد ، اما الام فتناولت الموضوع ، فلم يفهمها احد من الابناء . واني لهم ان يفهموا ما لم يتعلموه لا في المنزل ، ولا في المدرسة؟ اما في الشوارع ، فلا أحد يخاطب احداً . كان زوجها والحماة والحمو يستمعون اليها ، ويشاطرونها الاسف والخيبة .

— الولادة الاصطناعية قضت على اتصال الجنسين ، فانعدم الميل الغريزي للعملية والحاجة الى الآخرة ، الى حضوره والائتناس به . هكذا قضت مخابر صناعة النسل على الحب ، على أقدس شيء انساني في الانسان .!

قالت الأم ذلك بنبرة الضراعة ، فردد الجد :

— الحب ! كان الحب الغناء الروحي اليومي للفنان ، وللشاعر ، لكل امرأة ، ولكل رجل سوي ... اما اليوم .. لا ! ما بقي في هذه الدنيا ما يغريني . اللهم عجل لي بالفرج ! أوف ! ...

* * *

تنهدت الجدة بدورها . اما الأب والأم ، فلا يتمنيان الموت ، لأنهما مسؤولان عن مهمة علمية عظمى اوقفا عليها حياتهما ، بالرغم من خيبة بعض الملاحظات التي قاما بها . وقد بقيت المهمة سرية حتى اليوم .

* * *

كثيراً ما ألح الجد والجدة على ان يتعرفا على ما يقوم به ابنها وزوجه من ابحاث . ولكن قداسة سر المهنة حالت دون ذلك . اما الان ، وقد اوشكت التجربة ان تنتهي ، فلم يبق مبرر الكتمان التام . وفي غيبة عن الابناء ، لخص الزوجان المهمة ، للجدة والجد .

— ٥ —

التزم (الفاروقي) وحرمه الموقرة (فطومة) ان يرعيا اربعة ابناء من صلبهما ، مع اربعة من المنبثقين عن مخابر صناعة النسل ، وأربعة من نتائج تجربة ازدواجية (العملية الجنسية الكلاسيكية والعملية المخبرية) . أخذ الابوان يغذيانهم جميعاً من نفس الأقراص ، ويعاملانهم نفس المعاملة ، في كل شيء . لم يعلم الأطفال ابداً انهم ليسوا اخوة اشقاء خرجوا من « بطن » مخبر واحد . نعم ، انهم يظنون جميعاً ان المخبر واحد ،

والطبعةواحدة، وانالمواد الأولى الخام كلها من ابويها . المهم ليس ما يظنون، (ولا اثم عليهم فيما يظنون) ، وانما المهم هو معرفة كيف تتصرف كل مجموعة من المجموعات الثلاث .

ان افراد الاولى (اي الافراد الاربعة الذين صنعوا في الفراش على طريقة آدم وحواء) قد حافظوا على مايصطلح عليه الوسط المعاصر «رواسب التخلف والبدائية»، حيث يتكلمون ، عند الحاجة ، ودونما كثير حرج ، حتى ليخيل للملاحظ ان الكلام لديهم شبه طبيعي ، فيركبون الجمل اذا تحدثوا ، ولايبخلون ببعض الاشارات أحياناً . كما ينتابهم الميل الى الفضول ، في بعض المرات ، والحنين الى الآخرين ، بل (وهذا هو اغرب مافيهم) انهم يحسون (أو يشعرون بما يشبه الاحساس) ، يحسون بالملل لما في حياتهم من رتابة ... والعلامة الاستدلالية لهذه المجموعة هي (آ · **نسبة لآدم**).

أما الفئة الثانية (أي مواليد المخبر ، مائة بالمائة) فيمثلون أعلى درجات الكمال : لايتكلمون الا نادراً ، وقلما يقولون اكثر من « نعم » أو « لا » ، بل غالباً مايجيبون بـ « اوكي » أو بـ « نعم — لا » أو « لا — نعم » ، على حد سوى ، **لأن** السلب والايجاب يتساويان عندهم ، في اكثر الاحيان ، مادامت الأشياء تسير سيرها طبيعياً — آلياً ، عن غير ارادة منهم (الارادة ؟ هذه كلمة أخرى من كلمات **الجد والجدة ..**) ، الحرف الاستدلالي لهذه الفئة هو (م : من مخبر).

وأخيراً ، نصل الى المجموعة الثالثة (أي المكونة من خليط ، من المادة الخام البشرية ، والتركيب المخبري) . لهؤلاء الأربعة طبائع مزيجة من عادات الفئة الاولى وسلبية المجموعة الثانية . اما حرفها الاستدلالي فهو (خ : من **خليط**) .

* * *

عندما وصل العرض الى هنا ، صاحت الزوجة ، نحو الجد والجدة ، وابتسامة عريضة تعلو وجهها الناعم :

— الآن ستيقنان أني لست الانثى الارنب التي تلد بدون حصر ، كما كنتما تقولان عني ! وستفهمان ، أيضاً ، لهذا كنت **أغايل** فألد كل سنة بالتتابع ، ولماذا انجبت أربعة أبناء ، في كل مرة ! و..

قاطعها الزوج ليضيف بوداعة العالم الذي أوقف حياته خدمة التقدم :

— وعلمتما الآن ، لماذا استبد لنا اسم اسرتنا ، في الحالة المدنية ، بـ « آل آمخ »! ها ها ها ! ها ها ها ! ...

لما انتهى الباحثان من تحرير التقرير عن التجربة ، وقبل تقديمه الى اكاديمية العلوم، حررا وثيقة لأبناء الفئة الاول (آ .) وطلبا منهم الا يقرؤوها الا بعد ان ينهوا دراستهم الجامعية .

وها هي مقتطفات من الوصية :

« الرباط في سنة ٥٣ . من العهد الجديد » (١) .

[...] والآن وقد تعرفتم على أصلكم ، ونسبكم وتسلسلكم ، وعشتم التجربة ، وقارنتم بين ماكان وماهو كائن الآن ، كما قارنتم بين أبويكم واخوتكم، فدونكم الخبر الذي ستخرثونه دون بقية الأبناء ، لأنهم بلا فضول وحب استطلاع .

* * *

يا أبناءنا الأعزاء !

نترك مسؤولية تسيير الغد على عاتقكم . لقد حاولنا ، جهد المستطاع ، ان نرفع شعوركم الى درجة الوعي ، وان نلقنكم أشياء وأشياء (اظهرتم استعدادكم لفهمها) دون بقية الابناء ، طمعاً في ان تصيروا كراماً بررة نحو الانسانية .

اننا نناشدكم ، باسم الآدمية التي تجمعنا وإياكم ، ان تركزوا أعمالكم على مايعيد للأسرة المحبة ، وينظم اختراعاتكم واكتشافاتكم بشيء ، ولو قليل ، من العبث والدعابة . لينسجم المعقول باللامعقول ، والنظام بالعفوية . فالذي يخترع نكتة جيدة يسدي للنوع البشري يداً بيضاء ، كالذي يخترع صاروخاً ، سواء بسواء . انكم ، ايها الابناء ، ان عملتم بنصيحتنا ، اعدتم الى البيوت الدمعة ، والبسمة ، وسعادة المفاجآت .

القضية هي ان تخوضوا المعركة من اجل الاسرة والبيت ، بما لهما من آلام وافراح فينتصران على المغير المستبد الغاشم الذي استعاض بآلات بكماء صماء جامدة ، ليتحدث ، ويشرع ، ويحكم ، وينفذ ، ويجعل القوم « يعيشون » بأعين لاتنظر ، وبآذان لاتسمع . فحتى القلوب لم تبق في الصدور !..

اننا ، يا أبناءنا ويا أمل الانسانية ، على يقين من أن أقوام اليوم اذا عرفوا ، من

---

(١) طبعاً لما توصلنا اليه ، بعد ابحاث طويلة ، تحققنا أن هذا التاريخ يعادل ٢٠٥٣ مما كان يسمى بالتاريخ الميلادي (الراوي) .

جديد ، معنى الحب ودفء البيت وحنان الاسرة ، تأنسوا ، واستأنسوا ، مرة أخرى وأعادوا للحياة أبعادها العميقة الحقيقية .

أيا الأبناء الأعزاء !

أعطفوا على الابنـــاء الآخرين (م .) و (خ .) ، اخوتكم في التجربة . فهم مجرد ضحية .

* * *

الحب والاسرة !

الأسرة والحب !

تلك هي وصيتنا .

كانت جل حركات جيلنا ترمي الى البحث عن التواصل مع الآخرين . كان الآخر ، هو أيضاً ، يبحث ، ولكننا كنا نبقى عن بعد ، رغم التلاقي : حضور جاف لايشفي غليلاً ، كل واحد يتمنى ويشتاق الى اكثر من النظرات ، فلم يجـد الناس الا الزواج (واحد وواحد = زوج) . في الزواج يتحقق الامتزاج الأعمق . ان الحب عطش دائم الإلحاح ، ولكن الزواج ، على الأقل ، يروي بعض الظمأ .

نعم ، مع القرن العشرين (بالرغم من مرض الثورات ، وبالرغم من تفاحش النفاق والزور) استطاع العلم ان يقضي على السل ، والسرطان ، وحمى المستنقعات ، والطاعون ، بل انقرضت كل الأوبئة . أما ظمأ الحبين فكان أقوى من كل المقاومين .. فلا الفلسفة ، ولا الفن ، ولا العلم ، استطاعوا ايجاد حل . ولكن ، في عدم الحلول تكمن قيمة الحب .

الرجال لايتحملون الابتعاد عن النساء ، والنساء يجهـدن أنفسهن أبداً في الاقتراب . ولكن لهيب ظمأ الحب ينمو بالاقتراب : « وداوني بالتي كانت هي الداء » .

جرائم الابتعاد يقضي عليها الاقتراب ، الا أن الاقتراب ، هـــو ايضاً مرض : أحدهما شراب مثلج أكثر من المحتمل ، والثاني شراب شديد الغليان ينمي العطش .

كانت اعراض المرض واضحة ، والتشخيص لايفتر . ولكن أحداً لم يصمم العزم على القضاء على ذلك المرض العزيز النبيل . حتى حلت بنا كارثة صناعة النسل بالمخبر . اننا نعترف لكم بحظنا من المسؤولية في هـــذا الاختراع الشيطاني الذي اوهن التناسل الآدمي الكلاسيكي وبوره . لقد قضي الأمر « وتكسرت زناتك (روسورات) الحب ، والصراعات التي يوحي بها الحب . حقاً نحن أبويكما ، لم نساهم ، مباشرة في النسل بالمخبر . ان ما اخترعناه هو الاقراص للتغذية . لكن رغبة الجنس تأتي من الشعور بالغربة والخوف

من الجوع . فلما قامت الكيمياء بوظائف الفلاحة والصيد والرعي ، وصارت كمية الوجبة لاتتطلب أي جهد ، ويتمكن أخذها عانا ، زال الخوف من الغد المجهول ، وزال معه الميل الى الآخرين .

من نتائج الاقراص أن امراض الجهاز الهضمي انقرضت ، والسكتة القلبية ، وغير ذلك من الاخطار ، فاقتنع الجميع بأن لاهرم بعد اليوم ، ولا احتياج الى الآخرين . وانتشرت الاتكالية ، بل تنامى القوم كينونتهم وأنانهم ، لأنهم توقفوا عن الصراع والنزوع . أموا بدون حاجات : النوع يحافظ على البقاء ، بفضل المخبر ، والابناء ليسوا عالة على أحد ، ولا للجميع بل .. ولا لأنفسهم .

* * *

ابناءنا الاعزاء !

لقد مثلتم مرحلة حاسمة في التجربة الثورية التي قمنا بها ، وقد نجحت (طبقا لما كانت ترمي اليه) . الا أن نتائجها تعذبنا . اذ نرى اخوانكم (م) و (خ) قد انعدمت فيهم الرغبات ، وتقلصت غددهم حتى أصبحت دون جـدوى أو وظيفة ، مثلها كمثل الزائدة الدودية عند أصحاب القرن العشرين . نعم ، تقوم الدنيا الجديدة على انقاض العالم البالي ، دنيا القرن العشرين ، ولكن ، كما كان يقول أجدادنا : « لكل جديد لذة ، والبالي لا نفرط فيه ! » .

مغامرات اليوم غير جذابة لانها رتيبة ، وتسير كالمقياس الأرسطي : الخاتمة موجودة ، مسبقا ، في المقدمات . كان الناس يتطلعون الى الغـد ، فانهار الغد . وكانوا يتصارعون بحافز الحب ، منبع التحديات والصراعات . اما اليوم ، فلا احد ينتظر أحدا من الاحديين . انها هندسة سوت الباطن بالظاهر ، ووجهت المسيرة عـلى خط واحد مستقيم ، صراط لا اعوجاج فيه ، لاطلوع ولاهبوط . الزمان ، هو ايضا ، تقلصت كل أبعاده . مرآة واحدة بثلاثة وجوه : لاتغير بين الآن ، وغد ، وامس . فأستاذ النحو بمدارس اليوم (أي الآلة المختصة في هذه المادة) تقرر ان الكلام الذي نرسله ، شفويا ، او بالتموجات من الدماغ ، لايخرج كله من ثلاثة انواع ، الفعل ، والاسم ، والحرف . فأما الفعل ، فله صفة واحدة تعبر عن الدوام . أما الاسم ... » .

* * *

ايها الأبناء الأعزاء !

لانريد ان نطيل عليكم أكثر مما فعلنا ، راجين عدم المآخذة ، لاننا مازلنا متأثرين

الى حد ما ، بجو القرن العشرين وبعادأتنا العربية التي لم تكن تعتبر « الوقت من ذهب». بل من رمل . وكم كان عالمنا العربي غنيا بالرمل والكلام !

اذن أيها الابناء ، اننا نعلق عليكم كل الآمال في عملية الانقاذ . لقد اكتشفنا كثيراً من المكاسب العلمية ، ولكنا لم نتكاشف لأنفسنا ، لأننا أهملنا النكتة في الأبحاث ، وتغافلنا عن ادخال قليل من العبث والدعابة للمخبر. فتلافوا انتم ، الامر قدر الامكان.

* * *

ان مفتاح ابواب كل الاسرار هو الحب . نعم ، مارسنا الحب فوجدناه صعبا ، وكأننا نمضغ الحديد : ولكنه طعام لذيذ ، غـذاء من ازهار تنبع عن الجرح بعبير من نور ، فنشعر أننا أرواح مجنحة تتحدى الموت والمصير ، وتجعل الرجل حولة المرأة ، والمرأة فاكهة .

اعملوا ، ايها الابناء ، فنحن معكم قلبا وقالبا .

التوقيع

امكم	ابو كم
فطومة	الفاروقي

الصَّرع الأكبر

عبد القادر ربيعة

في البارحة حلم مسلم حلماً مخيفاً ، إذ رأى في منامه أنه يحمل على رأسه طبقاً من الخبز والطير تأكل منه !! وتلك هي نفس الرؤيا التي عرضت لأحـــد سجناء عزيز مصر وفسرها يوسف الصدّيق بأن العزيز سيقطع رأس من رأى هذه الرؤيا .

لقد تعود مسلم ان يؤمن بالرؤى الصالحة. فهو في الليلة الفائتة لم يخمر أو يضاجع امرأته أو يأتي منكراً . لقد خرج من البيت وكلمات جده تعمق المأساة المرتقبة في نفسه :

« بالفعل ، وبالفعل ياولدي تحققت الرؤيا وقطع العزيز رأس السجين » .

لم يدر مسلم في ذلك اليوم كيف عاد له احساس الطفولة المرهف وأوهامها المرعبة ، فغلبه الخوف وسرى في أطرافه انحلال كريه . وفي نفسه تأمل لامتناه بالخيانة .. على أي حال سار مندفعاً باتجاه الزرقة وهو يحدر نفسه بين الحين والآخر بأنه لم يعد هنالك سلاطين يضعون التيجان على رؤوسهم أو يأمرون الجلادين بقطع رؤوس البشر . . ذلك كان مجرد أضغاث احلام .. فلأسرعن خلف الزرقة ولأخفضن جانحي الايسر حتى ترتكز قربة السوس على وركي الأيمن فيخف ثقلها عن كتفي.. انها دائماً ثقيلة هكذا في بداية النهار.

لم يستطع الاستمرار طويلاً في تخدير مشاعره ، كان ينجح حيناً ويفشل حيناً آخر ، كطفل مريض لايبارحه الالم الا لحظة تقربه أمه الى صدرها .. لكنه كان موقناً ان ليس في يده حيلة ولافكاك له مما هو مكتوب على جبينه .

التفت نحو طفلته الصغيرة التي تتجرجر خلفه وهي تمص أصابعها الرفيعة بشبق .. غرق بتأملها بحزن وحسرة دون أن يدرك سبباً لذلك .. خيل له انه يحبها حق الهيام بل يرى فيها تميمة أو هبة من السماء أو هبة عطر من ارم ذات العماد .. ثم ابتسم لها بتكلف وهمس : — ياعيوش امسكي بريلي جيداً كي لا تضيعي ..

وراح يجوب الشوارع بقامته المقوسة .. يتعرج في سيره بين الناس .. تومض عيناه في عيونهم .. علهم يكونون عطاشاً فيشربون منه السوس البارد . . لكن معظمهم لبس الكنزات .. بدأ السواد يصبغ الملابس وماعاد في الشوارع لباس أبيض . . الكل يتفخم بلباس قطني سميك .. لقد ولى الصيف وأقبل الخريف . هذه أشجار الشارع تنفش ريشها .. السماء تتكدر بغمام كثيب .. وربما تنعق الغربان بعد قليل ويهطل المطر . هاهي الريح تسفي الأوساخ خش خش .. الله وحده الدائم ، فصل يأتي وفصل يروح !! لو كان الفصل صيفاً لنفقت القربة عني الآن .. لقد اقترب الشتاء واقتربت معه القلة والبلوى . . ليتهم قبلوني عاملا في الشركة الخماسية ، لكنت الآن غير عابىء بالشتاء أو الصيف .. ولربما كنت أقف خلف مكبس ضخم ، ارتدي بذة زرقـــاء مشبعة بالزيت .. أفرك قبضة صغيرة فيشد المكبس بقوة عشرين ثوراً .. كفاني أحلاماً يجب ان اذهب الى بوابة الصالحية . . بعد ساعة من الزمن سوف يقل رواد سينما الحمراء ولسوف يكونون عطاشاً . ماهذا ؟.. الملك لله وحده .. ما أفخم هذا المطعم انه مزين بالفضة !! الدنيا بألف خير .. رباه هاهو

الشيخ عربي .. ياشيخ عربي، ياشيخ عربي .. انه لايسمع، لقد دخل في المنعطف .. لابد وأن اذهب اليه لكي يفسر لي الرؤيا .

مضى نحو بوابة الصالحية بخطى جادة بعدان يئس من ذلك الشارع . وعيوش تسير خلفه وهي ممسكة بطرف مريلته الحمراء الطويلة التي تكاد تلامس الأرض بحوافيها .. صنبور السوس ينز نزيزاً بطيئاً على المريلة فيلوثها حتى ليكاد يمحي لونها الأحمر الزاهي .. وتتراقص الاشياء في عينيه تتقهقر مسرعة كتصاوير سينمائية مدوخة . أما عيوش فكانت تسرق الطرف من السماء فتكتشب لقرص الشمس الزاوي بين السحاب . يولد في نفسها ترقب لزخ المطر . . تصبح نفسها كسيرة لرحيل الصيف .. سوف لن تغني أغانيه العذبة .

طلعت الشميسة عاقبور عويشة

صاح الديك في البستان الله ينصر السلطان .

لكن الشتاء سيكون دافئاً إذا اصلح ابوها السقف . . حينئذ ستنام خلف أمها وتسبح في دفء انفاسها المحصور تحت اللحاف .. ستغمغم امها بالحكايا بصوت ناعس رخيم . كان ياما كان . كان حمود الصغير يعد نجوم السماء فتقول جدته من يعد النجوم فان الثألول سيرعى جسده .. جدة حمودة كانت أختاً لمولانا شروخ ملك الجان . . لقد شفته من الثألول وما عاد يعد النجوم ! ! إذا نامت امي قبلي فسألصق لغطيطها . انه يعلو ويهبط هكذا خاء خيء خا خيء .

إذا رأيت جنياً في الظلام فسأعصر ثديي أمي ويزول الخوف .

وقف عند باب السينما يرقب موت الزمن كي ينتشر المتفرجون في الشارع . . لن يكلف نفسه هنا عناء اصطياد الزبائن .. لأنهم عطاش جميعاً . لكن الانتظار حتى خروجهم يثير نزقه في ذلك اليوم وسيبقى خائفاً ابداً من دوريات الشرطة . بدأ يفكر تلقائيـــاً بالرؤيا .. يعيد اجترارها مئات المرات . فيزيد ذلك من هولها عليه .. ليت قربة السوس تباع بنصف ثمنها ويعدو بعدها الى بيت الشيخ عربي ليسكن قلبه .

لاحظ بصفاء انه مخطىء بقلقه وعليه أن يستعيذ بالله وان يقرأ شيئاً من القرآن في سره . . ويمسك اللطيفية أيضاً « يالطيف . . يالطيف .. » فان ذلك اجدى وأنفع . راحت نفسه تلهج باسم الله مع دقات قلبه اللهوفة فيخيل له ان شبحاً اسود كريهاً ينطرد من نفسه ويحل محله الرضى الالهي .. بقي هكذا والسوس مابرح ينز من القربة ويتقاطر على الأرض . . يرسم بقعة صفراء متسخة كدم حيوان مريض . . الكاسات الفضية ترتطم

ببعضها ببرود ورشاقة .. وريح الخريف السافية تلامس يديه المبللتين فتتلجان حتى العظم.

اما عيوش فقد مضى عليها زمن بقيت فيه منبهرة بتلك الواجهة التي علق فيها قماش ذهبي وتمثالات برونزية وأباريق من فضة وذهب .. كؤوس مخرمة يستحيل وقوف الماء فيها .. تلك الفتاة لابسة الفستان القصير .. انه يسفر حتى منتصف فخذيها .. ياويلها من الله !! إنها ستحترق بنار جهنم .. لو رآها الشيخ عربي لمزق لحمها تمزيقاً .. كل الفتيات اللائي يمررن في هذا الشارع ثريات. ليتني كنت واحدة منهن .. اواه صبي الكتب.. هذه كتبه منضدة على باب الدكان .!. ما احلى هذه الصورة .. فلأسرقها .

اختطفت الكتاب بخفة كشطار مصر . وعلى الأثر اصطادتها عين الصبي . اخذ يلاحقها فكانت تنساب منه بين الناس كأفعى رشيقة وتحتمي بأبهام تعاود الهرب وهكذا يئس صبي الكتب فصرخ حانقاً :

– يابياع السوس ابنتك سراقة :

صرخ مسلم بصبر نافذ كتصوف قطع عليه حاله :

– ياابنة الشياطين كفاني منك وجع راس .

امسك بالكتاب وقذفه صوب الصبي فشعرت عيوش بالفشل واخذت تستحلب دموعاً نسائية ماكرة ..

فتحت أبواب السينما على مصراعيها ، فلفح وجـه مسلم تيار هوائي ساخن محمل برائحة غريبة فارتسمت على محياه علامات الترقب والتهيؤ . بدأت اسراب الفتيات تطل بصورة متقطعة وعقبين سيخرج البسطاء . تحركت يده اليمنى برشاقة ، تضرب كاساً بكأس بينا بقيت الثانية ممسكة بذراع الصنبور البارد . خرج رجل يلبس سروالاً أسود وصرخ بصوت عريض – هات يامعلم وخدلك هالفرنك –

ثم تبعه مجند صغير ورجل يتجلبب بالبياض وامرأة أخذت الكأس وانكفأت على نفسها لترفع حجابها وتشرب في سرها . ومسلم يعمل بحركة آلية سريعـة . تميل بقامته ليخفض من علو الصنبور وما يكاد يلامس الكأس حتى يكون قد ملأها . في تلك اللحظة نسي رعب ازؤيا تماماً . كان يصيح بأعلى صوته فتنتفخ شرايين عنقه الغليظة . يسيل العرق من رأسه حتى أخمصيه وبقعة السوس تتسع بين رجليه حتى طوقته تماماً .

كانت سيارة الشرطة تسير مسرعة في الشارع فتفل جوع المارة يمنة ويسرة ، وثمة شرطيون يتقعدون صندوقها الحـديدي حاملين اعواد الخيزران مفتلين شنباتهم المتوازية ،

ورئيسهم البطين يجلس المقدمة وآثار الصباغ الاسود تظهر جلياً على شبه المبروم .
كان من الصعب على المرء أن يصدق رؤية السيارة وهي تقف عند باب السينما رغم سرعتها العجيبة .. لقد وقفت كحصان فارس هاجم . اندفع شرطيوها كالبزاة واعوادهم تتلاطم مع بعضها كارماح وفي خلسة غفلة أحس مسلم بقبضة حديدية تمسك ياقته وشعر قحفه بل تكاد بعض أظافرها تخترق إهابـــه . هلع قلبه ولتوه عاد اليه رعب الرؤيا فلم يعد يولي الزبائن اهمية ! ! عيناه تجمدتا بشاربي الشرطي المفتولين وعينيه المدورتين كعيني أفعى من جبل قاف .

— آخ أوجعتني بابيك وحق جدي الحسين لن أقف هنا مرة ثانية .
— لن أصدق أيها القواد . والله لأرى كل باعة السوس فيك .

لم تمض لحظات حتى تحلق حوله جمهور يلفظ بشتى المعاني والكلمات كخلية نحل اهتزت فجأة . انفلت صوت عيوش يتعالى . اصابعها الرفيعة تشد مريلة أبيها بعصبية حتى لتكاد تقطع أوصالها .

وفي زحام الشارع كان الثلاثــة يجرون بعضهم كرعيل من العميان ، الشرطي غزوان يجر مسلم فيجر الثاني عيوش بدوره وهي تجرن في سيرها لتجرهما الى الخلف . ليست المرة الاولى الــتي يجره فيها الشرطيون ، لذا فهو اعتاد ان يبلد شعوره عمداً كلما حدث له ذلك . بل لقد حفظ تعابير الوجوه في مثل هــذه الحالات . عرف كيف يفغر الناس افواههم دهشة واستنكاراً . وكيف يرسل بعضهم بصره مشعاً كقضبان من الفضة . ذلك العجوز القزم يجرجر نفسه كسلحفاة مثقلة . الشحاذ كشف عن ساقيه المبتورتين ليحرك الشفقة في القلوب . هــذه الفتاة طويلة كالقلق . آه الأولاد يتكاثرون حولنا . مالهذا الشاب يمسك بذراع الشرطي . ليته ينقذني بحق الرسول .

— مهلاً أيها الشرطي ، كم يبلغ ضبطك ؟
— انه قليل جداً تسع عشرة ليرة فقط .

وتقلصت معــالم الشباب .. مشى وهو مطرق برأسه الى الأرض ، فحدث لمسلم ما يحدث لصياد عجوز أفلتت منه الطريدة .. وما يكاد يتصور نفسه وهو يدفع الضبط حتى يزهق من الخوف وتمثل الأشياء في ذهنه كما تمثل في عيني ميت تحجرتا للأبد .. تسع عشرة ليرة ، انها عمل اربعة ايام او خمسة ايام كأنه لم يكسب فيها ابداً .. لو بقيت له لاشترى بها فستاناً لعيوش او حراماً يدفئهم في الشتاء ، بل باستطاعته شراء القار وطلي الجدران والسقوف . لكن هذا لا يفسر الرؤيا ، لابد وان هناك مصيبة أعظم .

عند باب المخفر لمح أبا الداشي بائع الشاي يصف كراسيه الصغيرة بعناية مثالية . . يمسح أقداح الشاي للمرة المئة ليزيد في ألقها وفي رأسه تفكير أسطوري مبهم حول نخوة الرجال . ما كاد يرى مسلم مخفوراً هكذا يرسل احداقاً كأحداق كلب ممتن حتى أخذته النخوة والحمية فداعب إلية شرواله بيد وفتل شنبه بيد ولمعت في مخيلته الكؤوس العديدة التي أسقاها مجاناً لغزوان .. أيقن انها لابد ان تفعل شيئاً في نفسه ـ تقدم من الجموع المحتشدة ونادى بلهجة شعبية بطيئة ومفخمة :

— ايوه .. شو صاير يا شباب .

لكن احداً لم يجبه بشيء .. كان كل منهمكاً في نفسه فخمن انه يجب ان ينادي غزوان بالذات .

— اخي غزوان بيك .. صلي عالنبي .. هاد رجال درويش مثلنا .

— لكن غزوان لم يستطع معه صبراً فانتهره بعنف وفظاظة .

— حاجتك ثرثرة ابو الداشي . انا موظف وتحت الأمر .

وانحسر ابو الداشي كئيباً خاسراً . وتيقن في تلك اللحظة ان نخوة الرجال قدماتت. ثم جلس على كرسيه الملون وقد يئس من اقداحه تماماً : بات يشك ان رجلاً حقيقياً قد شرب مرة من هذه الأقداح ، انه عصر البنطلون والمشط والمرآة .. وللمرة الاولى فكر بالهرب الى مكان قصي حيث مازال سكانه يلبسون الشراويل السود ويقدرون الرجـــال ويطيبون خاطرهم .

كانت باحة المخفر المسروقة من الطريق العام اشبه بأرض الحشر او سوق للنخاسة في زنجبار ، فقد سيقت اليها جموع الناس غصباً .. ثمة وجوه صبغها الدم ، ونساء مزقت جلابيبن ورجال اصفرت وجوههم ومقلهم من الحشيش ، وآخرون مقيدو الايدي وامرأة شحاذة تضرب شرطياً آخر . اما ذلك الغلام المصلوب في صندوق السيارة فقد كان يحدق الى الناس ببلاهة وذهول اذ هو في طريقه الى الفحص الطبي .. والجاني يجلس في اليمين ويزيد في تمييل طاقيته وينادي باسلوب واعظ منحل :

— ايه أنا وحدي يا ابن الحلال . . إيوه ، والله ما عاد حدا لحدا بهالأيام

ومسلم ما زال مصلوباً على البـاب يرى ويسمع دون ان يفهم ، انه مابرح يفكر بالمصيبة التي انبأه الله بها : .. ترى أتنتهي عند حدود الضبط ام هنالك ما هو أفظع ؟... ترى لو قبلوه في الشركة الحماسية أكان حدث له ما يحدث الان ؟...

فجأة برق مدخل زقاقـــه في عينيه ، فاغراً فاه كحضن ام حنونة ، فتحركت

الأفكار والحيل في ذهنه أو حدث له ما يحدث للحيوان ألقى نفسه طليقاً قرب غابته بعد طول سجن. لقد تذكر حينئذ كيف ان زقاقهم يسير متعرجاً كدرب الافعى .. أنى لهذا الشرطي الضائع الأصل ان يسير في دروبه ... سوف يسير في عشرين زقاقاً متصلباً حتى يضلل غزوان . وخلال لحظات كان قد أفلت من قيده وعَلِمَ علم اليقين ان ذلك القيد لم يكن الا الوهم .. راح يركض متلوياً في الأزقة وعيوش تجري خلفه برشاقة كالغزال وقد كفكفت دموعها وعاد الى نفسها الأمل المقترن بالسعي . كانت لاتصدق انها تستطيع الجري بسرعة هكذا. ان الأمور تبدو وكأنها في حلم . سوف تصل الى البيت وتختبيء داخل الفراش ولن يستطيع غزوان الخنزير ان يراها بعد ذلك .

كانت قوالب الجليد تتخبط داخل القربة بشكل ايقاعي يتناسق مع الخطى الخافتة ، بل اصبح الجري كهزات رقصة صوفية محمومة . الان انتعش مسلم كثيراً . وكلما اقترب من قنطرة ثالية كانت حواسه تتوتر أكثر فأكثر ويقفز بخطاه الى داخل القنطرة كمن يريد الإتحاد مع ظلمتها .. لكن لعنة الله على هذه المنعطفات ، انها تعوق سيره ... ترطم أطراف القربة ، فيخيل له أن ثوراً أسطورياً ينطحها بقرنيه .. حالة الكتف بات يخشى عليها من التقطع .. فليسك القربة بيديه كي لاتقع على الأرض ويخرب بيته .. غزوان الخنزير يدق الأرض « بيصطاره » حتى لتكاد ترتج من تحته ويصرخ بصوت عال :

– امسكوهاناس ! امسكوه إنه هارب من القانون !

ويستشيط مسلم غضباً وقهراً .. يلهج باللعنات .. أيريدون قطع رزقه ؟! .. هاهو المنعطف الأخير سيدخل الساحة بعد ثوان قليلة .. اذا كان هنالك أحد الرجال فلسوف يخلصه من ربقة غزوان .

بدأت باحة حيم تتجلى لعينيه . بدأ قلبه يهفو ليرتمي في زاوية ما من زوايا بيته ، مقطوعة الصلة بالشوارع والحافر .. وأناس اتحد وعيه بآلامهم منذ اليوم الأول للخلق . هاهو العجوز أبو تحسين يلمع أقداح الشاي المصفرة .. بعض العجائز يتسكعن بخطى بطيئة كدبيب النمل . الأطفال يجرون رؤوس العيدان في الأخدود الذي ينقل براز الحي الى البساتين .. أم جابر تنشر البساط الأحمر استعداداً للشتاء ، وغزوان بات منه قاب قوسين أو ادنى رغم هذا الضنك كله .. ويبدو أنه لن يفلح بالافلات منه ..

بدأ القنوط يتسلل الى نفسه ، يتنابه شيء من الندم الأليم . ألقى نظرة خاطفة على الساحة فرأى أنه لاطريق آخر غير الذي أتى منه . صارت الدنيا بين يديه سداً ومن خلفه سداً . لم يبق له إلا الدوران في الساحة . وراح يدور ويدور ، بغشاه التيه كلما أمعن

في دورانه وعمامة بيضاء على عينيه .. وعيوش ترسل صراخاً أشبه بنباح مقلوب لكلب ضال ، فيما كان الشيخ (صفقي) الأعمى يقرأ القرآن بصوت حنون مرتجف ، يبعث في النفس خشوعاً جنائزياً .

— ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأنفس والثمرات …

.. سقط بعدها على الأرض وأنفاسه تتلاحق كأنفاس ثور مضنى .. لم يدر ما إذا كان قد تعثر بشيء ما أم خانته ساقاه ، بينما انكبت عيوش فوقه تشده بيدين مرتجفتين ، فعلم حينئذ أنه قد انكسر !! وليس باستطاعته أن يفعل أي شيء حتى ولا الغضب .

لم يبق الا أن يشفق غزوان عليه ويرجع الى أصله ، لقد أنهكه وطعج له القربة وأوقعه أرضاً مع حمله .

حدق بوجه ابنته بخيبة وأسى .. فتجسد القدر أمام عينيه بأبشع صوره ، وحذاء غزوان مازال يرفس خصره بلا رحمة . ماذا يفعل غير أن يستغيث بجده الحسين ويتظاهر بأنه مصروع فيخرج الزبد من فمه ليحن غزوان لمرآه ويخلي سبيله .

فجأة أحس بشيء بارد يسري من تحته .. وخبخبة مياه تتكيكب ، تنساب بعيداً عنه ، لما رآها علم أن القربة قد انفتحت ، فغشت عينيه ومضة من ضيـــاء وشل الرعب جسده .. تيقن حينئذ أن الرؤيا قد فسرت وأنه مصروع حقاً !!

كان الشيخ (صفقي) مازال يقرأ القرآن فتناهى الى سمعه لغط الناس مما نشز عليه نغمة الترتيل ، فكف عن التلاوة ليتساءل :

— ماذا هناك يا إخوان ؟..

لم يجبه أحد بشيء بل صرخ عجوز شاذلي في احدى الزوايا :

— مدد … مدد … ياجدي يارفاعي

وأم جابر بدأت تمزق ثيابها لتكشف عن عورتها أمام الناس علامة الفضيحة والعار اللذين ألحقهما غزوان بهم !! ثم حملت عيوش بين أذرعها ورفعتها عالياً كقميص عثمان وهي تقفز كالمهووسين وتنادي :

— كشفت لنا عورتنا … يا … ..

ثم تبعتها خديجة الصبية وباعدت يديها الاثنتين بعد أن أمسكت بطرفي فستانها ، فانخزق الفستان من أسفل الى اعلى .. بان جسمها بضاً سميناً لايخطر في الخيال !! تبعتهـــا أخريات خرجن من البيوت ملهوجات ،وشيوخ صوفيون مهترئو العمائم والثياب كأنهم يأجوج ومأجوج .

لم يستطع الشيخ صفقي الانتظار قعيداً فقام على قدميه وراح يحرك يديه في الهواء ليتحسس مكان الصوت ككلب في الظلام وينادي بغيرة :

— أخ يا ابن الكلب، لقد هتكت عرض الحريم .

في الحركة الفنية العربية المعاصرة

سيف وأدهم وانلي

مصوران عالميان من رواد الفن الحديث

نقولا يوسف
ج ٠ ع ٠ م

فنانان عربيان شقيقان من مواليد الاسكندرية . نشأ على حب الفن ، وتفرغا الى الرسم والتصوير ، وتزاملا في العمل والكفاح ، وبلغا بتفانيهما وموهبتهما ذروة عالية من الصيت والتقدير ... وأضنى الجهد أصغرهما — ابراهيم أدهم — فانتقل الى رحمة ربه عام ١٩٥٩ . وما زال الأكبر — محمد سيف — يسير وحده على الدرب في صمت وعزم وقد نيّف على الستين ..

وكان قد لمع اسما هذين الفنانين — محمد سيف الدين وانلي ، وابراهيم ادهم وانلي — منذ الشباب ، وصعدا درجات حياتهما الفنية دون

ضجيج ، معتمدين على خبرة ذاتية طويلة ، ومزودين بموهبة فنية اصيلة ، ومتفانيين في العمل الفني وحده — هوايتها ومهنتها ورسالتها .. ومـا لبث أن تخطى صيتهما الاسكندرية والبلاد العربية الى الميادين الدولية فعرفتها الأوساط الفنية في الشرق والغرب ...

وولد سيف وانلي في حيّ «محرم بك» بالاسكندرية في ٣١ آذار (مارس) ١٩٠٦ ، وهناك ولد شقيقه أدهم وانلي في ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٠٨ .

وكان والدهما اسماعيل محمد عبد الله — وجده الأعلى عبد القادر الجيلاني — يلقب بوانلي نسبة الى « وان » من بلاد كردستان وقد جاء منها الى الاسكندرية — كما كان جدهما لأمهما محمد عرفان باشا من أمراء البحرية المصرية في القرن الماضي وينتسب الى جده ابراهيم أدهم الداغستاني .

وتربى الطفلان في بيت أسرتهما على ضفة ترعة المحمودية بالاسكندرية .. كما نشأ في بيت جدهما لأمهما محمد عرفان بشارع عرفان — حيّ محرم بك — وكان هذا القصر القديم يزدان بعدد من لوحات الصور الفنية التي يقتنيها هذا الجد صاحب النزعة الشعرية ، فتسترعي نظر الطفلين وتثير اهتمامهما وأحلامهما ..

وكذلك تفتحت عيناهمـا على تلك الصور البحرية والريفية التي تكتنف الاسكندرية بين البحر المتوسط وترعة المحمودية ، وتنسما الهواء الذي مازال يعبق بذكريات الحضارات الشرقية والغربية وقد انصهرت في هذه البوتقة العتيقة ..

وتلقى الفنانان تعليمهما الابتدائي والثانوي بمدارس الاسكندرية النظرية حيث ظهر تفوقهما في الرسم — ولم يلتحقا بمدارس الفنون .. ويروي سيف وانلي شيئاً من ذكريات طفولته وصباه — وقد شاركه فيهما شقيقه أدهم وانلي فيقول(١) :

(١) حديث بمجلة « صوت الشرق » بالقاهرة — اغسطس ١٩٦٢ ص ٢٨ .

« كأي طفل كان لابد أن أبدأ بالرسم كأول طريق الى التعبير . وفي المرحلتين الابتدائية والثانوية ، كانوا ينظرون إليّ وإلى أخي أدهم على اننا فنانان بالفعل .. وخلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨) كنا طفلين ، وكنا نلتقي بالفنانين المجندين الذين يمرون بالاسكندرية ، ويهبطون اليها أياماً ليسجلوا انطباعاتهم السريعة ، وكنا نلتقي بهم مصادفة وهم يرسمون ، وبخاصة على ضفاف المحمودية (حيث كان بيتنا) ، فنتأثر بأعمالهم . وحدث ذات يوم ان ترك أحدهم أدوات الرسم عند أحد « المعداوية » بالترعة ولم يعد ـ فاستطعت أنا وأخي أن نشتريها ببضعة قروش ، وكانت أدوات الرسم غنيمة بالنسبة إلينا . وبدأنا نرسم بالزيت بطريقة تلقائية ودون توجيه من أحد ..

« وكان لأمنا فضل كبير في تشجيعنا خفية . فقد كان الأب يحـاول أبعادنا عن الرسم خوفاً على مستقبلنا في المدرسة .. وكنا نتفنن في البحث عن أدوات الرسم ، فعندما تحل نهاية العام الدراسي يتحول في أيدينا أطلس الجغرافية الى ورق للرسم .. في هذا الوقت كنا نصور المعارك الحربية ، ومعارك الثورة الوطنية .. كنا نهتم بتكوين الصـورة ورسم المجموعات الكبيرة .

« وخلال زيارة لنا الى القاهرة مع والدنا رأينا مصادفة معرضاً ، أطلقوا عليه : « جماعة الخيال » . وربما كان هذا اول معرض كبير لفنـانين مصريين واجانب تشهده القاهرة ـ كان ذلك عام ١٩٢٧ على ماأذكر ، وكانت تعرض فيه اعمال : محمود سعيد ، ومحمد ناجي وزملائهما من الرواد . وتأثرت أنا وأخي أدهم بهذا المعرض الى حد كبير ، وعدنا الى الاسكندرية اكثر حماسة للفن ، وصممنا على ان نكون فنانين » .

وشاءت الظروف ان تتحول بهما الأيام من الثراء الذي أحاط بنشأتهما

الأولى في قصر الأسرة بالاسكندرية الى السعي وراء الرزق . فهجرا معاهــد التعليم ، والتحقا ببعض الوظائف الحكومية ، وعمل سيف وانلي كاتباً بمصلحة المناثر ، وأدهم وانلي كاتباً بمخازن وزارة المعـارف .. ثم انتقل سيف بعد بضع سنوات الى وظيفة في « دار الثقافة » بالاسكندرية ، ثم الى أستاذ بكلية الفنون بالثغر .

وكانت هناك جمعية لهواة الفنون بالاسكندرية في شكل مدرسة مسائية أنشأهــا حسين كامل من هواة الفن — فيما بين ١٩٢٨—١٩٣٠ — ليتمرس فيها الشباب على فنون الرسم والتصوير والنحت . وكان يعاونها بعض الفنانين العرب والأجانب وبينهم المرحوم المصور الكبير محمود سعيد ، كما كان المثال محمود مختار يشهد أعمالها ومعارضها كلما مرّ بالمدينــة ، ويتنبأ لسيف وأدهم بمستقبل باهر ، وينصحهما بألا يتقيدا بتعاليم المدارس الأكاديمية وأن يسيرا بفنهما على سجيته ، حين كان يرى بواكير عملهما في تلك المدرسة التي كانا يترددان عليهـا .

وفي الوقت نفسه تتلمذ سيف وأدهم — منذ عام ١٩٢٩ — على الفنان الايطالي «أوتورينو بيكي» الذي أنشأ وقتذاك بالاسكندرية مرسماً ومدرسة للتصوير — وكان بيكي يساعدهما على اكتشاف نفسيهما ، دون أن يحاول التأثير على اتجاههما . وبعد أربع سنوات قال لهما : « الآن أصبحتما أستاذين مثلي ، وليس عندي ما أضيفه الى خبرتكما .. » — كما قال : « ستدخلان ميداناً قاسياً هو ميدان الفن — وما زالت بلادكما في حاجة الى جهود فنانين من أهلها ، وفي حاجة الى جمهور يقــدّر أعمال مواطنيه الفنية ويقتنيها .. » .

كان هذا منذ ٣٣ عاماً — ولو طال الأجل بهذا الاستاذ لرأى كيف اجتاز تلميذاه هذا الميدان في عزم وظفرا بتقدير مواطنيها ..

وفي عام ١٩٣٢ — انشأ سيف وأدهم مشتركين مع الفنان الراحل احمد فهمي مرسماً خاصاً بهم ، يعملون به معظم يومهم ، ويعدّون فيـــه لوحاتهم التي خرجت الى المعارض العامة .. واجتذب مرسمهم هذا الفنانين على مختلف جنسياتهم من المقيمين والزائرين .

ومنذ عام ١٩٤٢ خرج سيف وأدهم الى الجماهير — وبينها نقـــاد الفن والصحافيون — وذلك بعرض لوحاتهما في معارض محلية ودولية ، بعضها مقصور على أعمالهما ، والبعض عام للفنانين .. وأقاما بالاسكندرية في ذلك العام (١٩٤٢) أول معرض خاص بلوحاتهما .. ومعرضاً عام ١٩٤٥ في قاعة : « جماعة الصداقة المصرية الفرنسية » . وفي عام ١٩٤٦ في قاعة « الليسيه » بالقاهرة .. ومعرض لوحات « باليه » تكريماً للممثل لويس جوفيه بالاسكندرية عام ١٩٤٨ .

وكان فنّهما يتطور خلال تلك السنوات فبدأ أكاديمياً ثم اتجه إلى النوع الإحساسي (الانطباعي) ثم إلى التجريدي ، وجمع بين القومية والعالمية .

وعرضت لوحاتهما عام ١٩٤٩ في ثلاثة أقطار ، وذلك في معـــارض : « الأتيليه » بالاسكندرية (مناظر من ايطاليا) ، و « اليونسكو » في بيروت ، ومعرض « مصر - فرنسا » في باريس .

وعرضت في عام ١٩٥٠ في متحف الفن الحديث بالقـاهرة ، و « بينالي » مدينة البندقية (فينيسيا) بايطاليا .. وعام ١٩٥٢ في قـاعة « الصداقة المصرية الفرنسية » بالاسكندرية ، و « بينالى فينيسيا » . وكان بين المعروضات لوحات عن مصارعة الثيران في اسبانيا ..

واشتركا عام ١٩٥٤ في أربعة معارض بأربـع مدن: في قاعة « الأتيليه » بالاسكندرية ، وقاعة « كليوبتره » بالقاهرة ، و « بينالي » البندقية ، و « بينالي »

سان باولو بالبرازيل . والمعروف عن معارض البينالي أنها تضم أعمال الكثيرين من المبرزين في فروع الفن من مختلف دول العالم .

ثم في ثلاثة معارض عام ١٩٥٥ : — « الأتيليه » بالاسكندرية — باليه مسرح وأوبرا —وبالقاهرة . ثم في « بينالي الأسكندرية » الأول . . وفي١٩٥٦ في « المعرض الآسيوي الأفريقي » بالقاهرة ، وفي معرض بكين عاصمةالصين . .

وعادا عام ١٩٥٧ إلى العرض في « بينالي سان باولو بالبرازيل » . . وفي قاعة « تشايكوفسكي » بمسرح موسكو بمناسبة أعياد الشباب عامذاك . وكان بين لوحاتها : الرقصات السوفيتية لفرقة مويسيف ؛ وهي الفرقة التي اشتهرت بتطوير الرقصات الشعبية الروسية . . وفي ذلك العام عرضا أيضاً في بينالي الاسكندرية الثاني ، ثم في قاعتي متحف الفنون الجميلة بالاسكندرية ، والمركز الثقافي بها ؛ بمناسبة ذكرى مرور خمسة وعشرين عاماً على إنشاء مرسمهما . . وفي القاعتين الأخيرتين أيضاً أقاما معرضين خاصين بها عام ١٩٥٨ .

وفي عام ١٩٥٩ انتدبت وزارة الثقافة الفنانين سيف وأدهم وانلي للسفر إلى بـلاد النوبة بصعيد مصر حيث رسما عدداً كبيراً من الرسوم السريعة وه الاسكتشات » ، وسجلا الكثير من مظاهر الحياة هناك ، وبينها ١٥٠ رسماً أعداها خصيصاً لكتاب تصدره وزارة الثقافة عن بلاد النوبة قبل أن تغمر ميـاه السد العالي أرضها — احتفاظاً بهذا التراث القديم . .

وعقب قيامهما بهذا العمل ، وعودتهما إلى الاسكندرية (عام ١٩٥٩) فارق أدهم وانلي أخاه الى عالم البقاء ، وترك يتم رسالتهما الفنية وحده . .

أدهم وانلي

ويعد الفنـــان المصور السكندري ابراهيم أدهم وانلي من نوابغ الفن التشكيلي . . وذاعت شهرته في بلاده وخارجها ، وترك ثروة فنية من بضع مئات

من اللوحات الكبيرة والصغيرة : الزيتية والمائية والجواس والقلم الرصاص والحبر، تمثل الحياة الشعبية في مختلف بيئاتها ، ومناظر الاسكندرية والنوبة ، وبعض الاقطار الاوربية .. الى جانب الأساطير الخيالية ، وبعض المواقف التاريخية ، ورقصات الباليه ، ومشاهد السيرك والمسرح ، والرسوم الكاريكاتورية ..

وتمتاز رسومه كما وصفها الفنان محمد حسن : « برشاقة الخطوط وحيوية الألوان ، وتراقص المعاني ، وحساسية التعبير » .

ولد ابراهيم أدهم وانلي — كما سلف — في حيّ محرم بك بالاسكندرية في ٢٥ فبراير ١٩٠٨ — وقضى بها معظم حياته وتوفي ودفن بها . وزامل شقيقه سيف وانلي — الذي يكبره بنحو عامين — في جميع أطوار حياته ، في طفولته ونشأته ، وفي المدرسة والمرسم ، والبيت والملعب ، وشاركه في المعارض الخاصة بأعمالها ، وفي المعارض العامة المحلية والدولية — السالفة الذكر ..

وعمل أدهم عقب تعليمه الثانوي في وظيفة كتابية بمخازن وزارة التعليم ، ثم كان مدرساً بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية فترة أخرى .. ومنح مع أخيه التفرغ للتصوير عام ١٩٥٨ من وزارة الثقافة .. وكانت آخر رحلاته وتنقلاته من أجل عمله الفني رحلته مع أخيه الى بلاد النوبة حيث قام بتصوير معالمها ..

ويمكن تصور تلك الجهود التي كان يبذلها أدهم وانلي في سبيل الفن ، من هذه العبارة التي ذكرها عام ١٩٥٧ في احدى رسائله الخاصة : [١] .

« منذ رجعتُ من القاهرة ونحن — أنا وأخي سيف — في عاصفة فنية استعداداً لمعرض اليوبيل الفضي لإنشاء مرسمنا بالاسكندرية . واننا نقوم بجهود

---

(١) « المجلة » بالقاهرة — فبراير ١٩٦٠ لمحمد الجباخنجي .

فوق طاقتنا — ولا أقول فوق طاقة البشر — لأننا لسنا متفرغين تماماً للفن الذي انصهر في مرجله عباقرة الفنانين بدون شفقة . فما بالك ونحن في جحيمين — جحيم الوظيفة وجحيم الفن ، إننا لا نطمع إلا أن يهيء لنا هذا البلد الأمين حياة كريمة لنصنع أمجاده في هدوء وسلام ».

وشاء القدر أن يرحل عن دنيانا هذا الفنان الموهوب بعد أن منحته الدولة اجازة التفرغ لفنه بعام واحد . . وكانت وفاته يوم ٢٠ من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٩ بمستشفى المواساة بالاسكندرية . وكان قد تقرر سفره الى اميركا على نفقة الدولة لاجراء جراحة في شريان القلب ، ولكن القدر كان الأسبق — فتعطلت اليد التي رسمت خلال اربعين عاماً مئات اللوحات وألوف الرسوم و « الاسكتشات » — المنتشرة في بلاده وخارجها . والتي سجلت الحياة داخل الأحياء الشعبية السكندرية والأسواق والمسارح ، ومعالم النوبة وبحيرة أدكو ، ومعركة دارفور ، ورقصة الدبكة ، وسباق الخيل ، ومصارعة الثيران ، ومهرجي الشوارع ، وباليه الفرق السوفيتية ، والباريسية ، واليوغوسلافية ، وباليه بورجي وبس ، وأوبرا كارمن ، وغيرها من اللوحات المستوحاة من الشرق والغرب ، والمعبرة عن افراح الانسان وأحزانه في كل مكان .

وكان للاسكندرية — مسقط رأسه — نصيب وافر من اهتماماته . . ومن لوحاته السكندرية : كلية الفنون ، العودة من الاستديو ، الرسم الاول ، حديقة انطونيادس ، في قهوة «أبليت» . . . وغيرها .

ومن لوحاته المعبرة : تفكير ، إيحاء ، انفعالات ، حلم ويقظة ، تفاؤل ، متاعب ، قبر الفنان ، الوظيفة ، تفرغ ، تعارف ، منبر الفن ، من وحي الفنان . .

ويقول الناقد الفني لجريدة «لوموند» — يونيه ١٩٥٦ — عن لوحات أدهم

وانلي المعبرة عن الانفعالات في تصوير رقصات « الباليه » التي قدمتها بعض الفرق العالمية على مسارح الشرق : « ... لم نكن نتوقع منذ وفاة ديجا ، أن يقتحم مصور غيره ميدان الباليه . وقد سد أدهم وانلي ، وأخوه سيف وانلي ، هذا الفراغ بجدارة على لوحات تنطق بالمشاعر وتحلل الحركة والضوء المسرحي بمواهب فذة ... »

وقال ناقد آخر في ذلك العام : « انهما يجاهدان في بلدهما في سبيل الحركة الفنية مثلما كان يفعل في باريس فان جوخ ، وجوجان .. »

ويقارن سيف وانلي بين فنه وفن أخيه أدهم فيقول: «منذ نشأنا، أنا وأدهم، كانت ميولنا واحدة لاتختلف في أية هواية حتى الرسم كأطفال . ويتمثل الفرق بيننا في إحساس أدهم احساساً مأساوياً خالصاً ، غير أنه عندما كان ينفذ صورة ينقلب الى الجانب المرح في الحياة، فيرسم المهرج مثلا في وضع مضحك بينما ارسمه في شكل حزين .. لم يكن انفعالي مأساوياً مثله ومع هذا فان صوري كلها تمتلىء بالتراجيديا العميقة ، وقد اتاح لي الباليه الجاد فرصة لهذا المنحى .. ولعل ادهم كان ينفّس عن مكبوتاته النفسية الناجمة عن متاعب الحيـــاة في صور ساخرة ، ويعوض عن الحزن بالسخرية .. »

ويقول سيف ايضاً عن اخيه ادهم بعد وفاته في حديث صحفي : —(١)

« كنت اكبره بثلاثة وعشرين شهراً — وبعد موته كنت ابحث عنه في كل مكان . إذ كان كلٌ منا ظلاً للآخر . ويشبه كل منا أخاه . ولكنه كان أكثر منّي عصبية وانفعالاً الى حد ما — وهذه الانفعالية الزائدة استهلكته .. وفي

(١) مجلة « لسكريب » الصادرة بالفرنسية — القاهرة — مارس ١٩٦٢ .

التصوير كان يخشى الألوان الصريحة .. وفي الرسم كان يفضل في الغالب الناحية الساخرة . ومع ذلك كنا روحاً واحداً في جسدين ! »

وعقب وفاة أدهم وانلي عام ١٩٥٩ شرعت تلميذته الفنانة « إحسان مختار » في جمع آثاره ومخلفاته جميعاً في مكان واحد ، وإنشاء معهد لتدريس الفن التشكيلي في هذا المتحف . واشترت « معهد بيكي » القديم الذي كان يعلم فيه « أوتورينو بيكي » وابنه « سيلفيو بيكي » - من أساتذة أدهم في الرسم ، وحولته إلى متحف ومعهد . وأفردت فيه قاعـة جمعت فيها آثار أدهم وانلي ورسائله ومذكراته ويومياته وأدواته وأهم أعماله ، ليكون من هذا كله متحف خاص به في المستقبل .. وافتتح هذا المتحف يوم ٢١ ديسمبر ١٩٦٣ - محافظ الاسكندرية وكبار رجال الفن والثقافة ، في الرسم نفسه الأخوين أدهم وسيف ، والمطل على الشارع الذي سمى أدهم وانـلي تخليداً له ، ثم نقل بعد ذلك إلى المعهد الكائن « بشارع محطة مصر » بالأسكندرية في تموز (يوليه) ١٩٦٤ ويعلم فيه اليوم شقيقه سيف أصول التصوير للطلاب وهواة الفن .

سيف وانلي

توقفت ريشة أدهم وانلي في نهاية ١٩٥٩ ودخل الفنان وتراثه في سجل التاريخ . وشرع المعنيون بفنه يحصرون ذلك التراث ، وأخذ النقاد يكتبون عن حياته ويقيّمون فنه ، وأما سيف فقد طفق منذ تلك الساعة يشق الطريق وحده مكملاً رسالة أخيه ورسالته .. غير أن فقد أخيه وزميله ترك أثراً عميقاً وفراغاً قاتماً في نفسه . ووضـح ذلك الأثر في لوحات حزينة تتسم بالفجيعة والمرارة ، وتخرج في ألوان عابسة - كما ترى في لوحته المسماة : « حياة عدم » حيث تظهر مغنية « التخت » أشبه بهيكل عظمي ، ومن حولها أفراد الفرقة في

سحن كئيبة عليها مسحة الموت والعدم .. أو في لوحته : « عازفة المندولين » التي يرتسم على وجهها الأسى واليأس ..

ولاحظ النقاد ما ساد الكثير من لوحاته الأخيرة من لون أسود داكن « مع تنغيم لدرجات الأبيض والأسود » بعد أن كانت ألوانه المفضلة هي الأحمر والأزرق الفيروزي والأخضر والأصفر .. ومع ذلك يقول سيف في ذلك : « إنه إنما يستخدم اللون الأسود عفواً دون قصد أو بغير شعور ، وأن الفنان كلما أوغل في فنه اقتصر في ألوانه على القليل .. »

وتسامى سيف بأحزانه ، وانصرف بكليته إلى فنه ، وشهدت الأعوام التالية عدداً من انتصاراته الفنية .. ففي عام ١٩٦١ أقام بمتحف الفنون الجميلة بالاسكندرية معرضاً جديداً افتتح في عيد الثورة التاسع ، وعرض فيه أعمالاً ممتازة من صور الطبيعة ، والناس ، وبعض مشاهد أوربا و« الباليه » .. كما عرض في يوليه بمطعم « الأيليت » بالثغر عدداً من لوحاته الجديدة .

وفي ربيع ١٩٦٤ – اتفقت جريدة « الاهرام » بالقاهرة مع الفنانين : راغب عياد ، وسيف وانلي ، وصلاح طاهر – على أن ينتقلوا الى مدينة أسوان ، ويعيشوا فترة بين هدير العمل في بناء « السد العالي » ، ويسجلوا انطباعاتهم على لوحاتهم كما تنشرها الجريدة على صفحاتها تباعاً . وقد عاد كل منهم ومعه ما احسه وتأثر به مرسوماً وملوناً على نسيج وورق .

وكان من أحدث معارضه في الخارج – المعرض الذي أقيم لفناني الاسكندرية بمدينة « أوديسا » السوفيتية ، في شهر مايو ١٩٦٦ – حيث أثارت لوحاته اهتمام الأوساط الثقافية هناك ، وطلبت محافلها المتحفية للفنون الجميلة عرضاً خاصاً لأعماله في موسكو – وكان وجودسيف وانلي في ذلك المعرض من العوامل

التي ساعدت على نجاحه . فقد دعي قبل ذلك بثلاث سنوات الى روسيا ولم يذهب الا في ذلك العام . وهناك كان يطلب الكثيرون توقيعــه على برنامج المعرض ، فكان يضيف اليه رسماً سريعاً لوجوههم .. كما حاضر عنه مدير متحف « الأرميتاج » في لينجراد ، وعرض نماذج ملونة لبعض أعمال سيف وأخيه أدهم . وأعدت فنانة هناك رسالة تقدمها الى جامعة موسكو عن سيف وانلي وفنه واتجاهاته .

وعادت معروضات فناني الاسكندرية وبينها لوحات سيف وانلي من أوديسا في صيف ذلك العام (١٩٦٦) لتعرض بالقاهرة .

وفي أول مارس ١٩٦٧ سافر سيف إلى اسبانيا ليمثل فناني الاسكندرية في المعرض الذي أقيم لأعمالهم هناك .. وانتهز سيف فرصة وجوده في اسبانيا فرسم عدداً من الانطباعات الاسبانية والأندلسية .

ولما رأى ما بلغه هذا المعرض باسبانيا ، ومن قبل بالاتحاد السوفيتي ، من نجاح ، طلب نقله الى باريس في صيف ١٩٦٧ حيث استطاع الكثيرون من الأجانب وأصدقاء العرب رؤيته .. وهناك أيضاً رسم سيف بعض الصور الباريسية .. وفي تلك المعارض الأخيرة في هذه الأقطار الثلاثة ، نال سيف وانلي الكثير من التقدير .. ويقول لك : « لما كان الفنان يسير بالهامه في طريق الفن الطويل ، فلست أدري الى أي مدى او كيف يتطور فني . »

وتتجه أعمال سيف وانلي الى ناحيتين : احداهما تحمل الطابع القومي العربي السكندري ، والأخرى عالمية الطابع تصور الانسان من مختلف بيئاته . ويبدو تأثره بالحياة السكندرية وعراقتها في كثير من لوحاته ومن ذلك لوحتان مستمدتان من تاريخ الاسكندرية : احداهما تمثلها من عهدها الفرعوني الى العصر المسيحي ، والأخرى من العهد الاسلامي الى العصر الحديث .. وهناك لوحات

تسجل الحياة اليومية والصور الشعبية في مسقط رأسه — في الشوارع والمقاهي والحدائق وسباق الخيل والسيرك .. والألعاب الرياضية ، والمنتديات العامة والملاهي ورقص الباليه — وتحمل لوحاته مثل هذه الأسماء : صياد السمك ، مراكب بالميناء ، صيادون بادكو ، ميناء الاسكندرية ، الكورنيش ، شاطىء كليوبتره ، النساء وجمبري ، مدينة الملاهي ، شاطىء ستانلي ، الباليه ، حديقة الشلال ، سيمفونية الأسماك ، كابين على الشاطىء ...

وفي طوافه بالكثير من أقطار الشرق والغرب ، استلهم الكثير من صور حياتها وطبيعتها . ومن ذلك لوحاته المسماة : جزيرة كابري ، ميدان اسبانيا بروما ، بوابة كبوانا بنـــابلي ، أسطح منازل بفينيسيا ، لوحات من روسيا ، كبري المحطة بفينيسيا ...

ورسم سيف عشرات اللوحات عن فنون « الباليه » والمسرح في الفرق التي كانت تزور الاسكندرية والقاهرة ، وكان يحمل ممثلو تلك المسارح ، هذه اللوحات الى بلادهم .. وهي لاتقل روعة عن رسوم الباليه التي خلفها الفنان التأثيري الفرنسي ديجا ، أو رسوم الفنـان تولوز لوتريك .

ومن الأحاديث التي يدلي بها سيف وانلي الى محدثيه ، وبعضها ينشر في الصحف ، يمكن الاستدلال على مؤثراته واتجاهاته وتطوراته — فهو يقول في إحداها عن بعض من تأثر بهم : —

« .. أما الفنانون الذين تأثرت بهم وبأعمـالهم ، فهم : رمبرانت ، وفيلاسكيث ، وجويا من الكلاسيكيين .. وسيزان ومونيه وبيكاسو من المدرسة الحديثة .. لكن تأثري بهؤلاء الفنانين لم يكن تأثراً مباشراً بل كان الاعجاب بهم وبأعمالهم — خصوصاً في حرية الأداء ، وعدم التقيد بتقاليد من سبقني ..»

ويقول عن الجمال في حديث آخر(١) : « انه لايعترف بمقاييس الجمال المتعارف عليها ، لأن الجمال عنده نبع داخلي .. مشاعر جميلة .. جوهر حر .. روح صاف .. وهو عندما يرسم ، لايرسم السطح أو الشكل الخارجي ، بل إنه ينسكب على لوحته جوهر الشيء ومكنوناته .. ويحاول أن يظهر شخصية الشخص الذي يرسمه وأخلاقه في رسم . ولذلك فهو يضطر أحياناً الى التشويه الفني من أجل الجمال في حد ذاته ؛ أي من أجل اظهار الجوهر الداخلي الذي لايتضح في الرسم إلا عن طريق التشويه الفني .. وبعض الوجوه الجميلة في نظرنا يراها برغم جمالها الصارخ غير جميلة على الاطلاق لأنها بلا مشاعر وغير معبرة ، فهي كالدمى الجامدة ، أو الطبيعة الصامتة . وربما كانت بعض الوجوه التي نحكم عليها بالدمامة جميلة في نظره — لأنها شفافة معبرة ناطقة بما يدور في محورها الداخلي وأعماقها اللانهائية تماماً كالمرآة .. »

ويقول عن المذهبين التجريدي والسريالي :(٢)

« .. لانستطيع انكار وجودهما — لأن هذين المذهبين قيمة كبيرة جداً بين مذاهب الفن المتعددة . وهذه المذاهب يصل اليها الفنان بعد دراسته الواقعية والكلاسيكية وشتى المذاهب الاخرى . وهكذا سيجد الفنان نفسه بعد فترة يتجه تلقائيـــاً الى هذين الاسلوبين بدون تعمد أو كلفة كنوع من التطور التلقائي .. »

ويضيف في حديث خاص : — « انه من الخطر على الفنـــان المبتدىء ان يغامر في طريق هذين المذهبين دون دراسات وافية لمذاهب الواقعية الاخرى ، وإلا خرجت لوحاته سطحية ومبنية على غير أساس » .

---

(١) جريدة « الاسكندرية » في ١٩٦١/٦/٤ .
(٢) المجلة — فبراير ١٩٦٠ .

ويعود مفسراً انتقاله من مرحلة الواقعية الى مرحلة الفن المطلق فيقول(١): «لقد انتهيت كفنان من مرحلة الواقعية، وأصبحت القصة عندي هي هذا الفن المطلق. والتجريد عندي هو هذا السر المبهم ولكنه في الحقيقة ليس مبهماً إلا لمن عزّت لديه فقط تجارب الرؤية. فالفنان يعبر عن حسّه بالموضوع الذي ينفذه. كذلك يعبر بالايقاع الذي تتحول اللوحة بدونه الى مجرد زخرفة تتألق من بقع قيثارة. وما أكبر الفرق بين التصوير والزخرفة.. ويتحقق الوجود التمثيلي من خلال اللون الرامز.. ان الفنانين ينقسمون في رأيي الى ثلاثة أقسام: العبقري المبدع خالق المدرسة الجديدة، ويليه النابغة مكملها بالاجادة، والثالث هو الأكاديمي الذي يضع لها قوانين. وبتدريس هذه القوانين تضمحل المدرسة، ويتحتم ظهور عبقري آخر يبدأ دورة مجددة. وكلّ حركة او مذهب فني جديد يمرّ على هذه الأقسام الثلاثة السالفة».

ثم يقول سيف وانلي:

«إن الفنان المبتدىء هو الذي يعيش جماهيرياً، يرسم كلّ ماتقع عليه عيناه. وكلما تقدّم في «التكنيك» نبع التعبير من نفسه وازداد تركيزاً. هذه هي ذاتية الفنان وموضع أصالته. والا أصبح تقليدياً سطحياً يخلو من الروح، ولستُ ممن يعتقد بوجود شيء اسمه التجريد. ان الواقعية ايضاً تجريد يتناول الطبيعة بنظرة جديدة - كلاهما يقف على مستوى واحد. ولعلّ الخلاف ينحصر في أن التجريد بحاجة الى ثقافة اكبر ومستوى خاص من الدراسة والتذوق، أما أعمال الفن المطلق فانني أجريها لنفسي، واكتشف بها نظريات جديدة».

ويقول عن مصادر إلهامه وكيف يخلق الوانه: -

(١) حديث بجريدة «الثورة» - دمشق - مع نبيل فرج - ١٩٦٦/١٢/٢٧.

« لا سبيل الى حصر مصادر الالهام ؛ فالحياة كلها مصدر إلهامي . تنبع الفكرة اولاً كالقبس ثم تنمو حتى تنضج ولا تحتاج الا الى التنفيذ ، فأحياناً ألهم وانا راكب الترام او اسير في الطريق .. يعجبني لون ملابس سيدة ، واعايشه ثم اصوغه ، وتتحول هذه الالوان بالفرشاة الى تجريد .. وبالنسبة لخلق الالوان ، اقرر عادة بعد تفكير طويل أني سأعمل صورة بلون من الالوان مجسّم في ذهني. وعندما تكتمل الفكرة في رأسي انفذها توا .. وأميل الآن الى تبسيط الصورة جداً ، فلا استخدم الا لوناً او لونين وعلى الاكثر ثلاثة . فكلما رسخت قدم الفنان وتمكن من السيطرة على اداته حتى النهاية ، مال الى التبسيط .. »

وعن الفنان والمرأة في رأيه: « .. نعم ان المرأة قد يكون لها تأثير على العقل الكامن . واذا كنت قد تزوجت فان مسؤولية الاسرة قد اخذت شطراً من جهدي وشاركتني فيه . وهذا ما لم اكن ارغب فيه . وقد كان عندي عمل عليّ ان اتمه — هكذا شاء الله . المرء قدر لبعض الناس ان يعيشوا في اديرة ؟ ومع ذلك فكثير من صوري تشبه نساء عرفتهن — ولو كان ذلك سطحياً . وهذا هو السبب كما اعتقد في ان الفنان لا ينقصه فيما ندر ان يخضع لتأثير — ولو عن غير وعي — للمرأة .. »

ومن رأيه في عالمية الفن : — « ان الفن الحديث يتجه الى الانسانية في مختلف اماكنها . والفنان يعيش اليوم وسط حضارة القرن العشرين التي لا يستطيع ان يهرب منها لأنها تخصّ العالم اجمع ، ولأن امكانياتها ومواصلاتها يسرت التقارب بين الشعوب ، ولهذا اخذ الفن في الخروج من الانطوائية الاقليمية بعد ان تخفف من الطابع المحلي الذي نشأ عن العزلة » .

« إن كل فنان يخضع لمؤثرات بلاده ولمزاجه الخاص . وأظن أن لدينا

فنانين يمكن مقارنتهم بأساتذة عــالميين معينين ، ولكنهم غير معروفين معرفة كافية .. إن الفنان لا يحدّ فقط بحدود بلاده ، فالعالم بأجمعه يخصه ، وميـدان عمله الحقيقي هو العالم بأسره .. وإن احساسه بالجمال وكذا خياله يعيناه على ابداع ما لايراه الآخرون .. »

ويلخص النـاقد الفني بدر الدين أبو غازي فن سيف وانلي بقوله : (١)

« إننا لانلمح عند سيف ما نلمحه عنـــد بعض الفنانين من خط ثابت متصل الحلقات ، ولا نلقى عنده اتجاهاً على تأكيد شخصيته الفنية عن طريق التزام منابـع بذاتهـــا من التراث المصري ، أو فلسفة معينة تتعلق باتجاهات التعبير الفني في هذه البلاد . فهو فنان التجربة الحرة الطليقـــة ، صاحب التأثيرية (التي تسجــل الأشياء كما تراها العين ، وتصوغ الألوان في غلالة النور الطبيعي الذي ينعكس عليهـــا ويحدد درجاتها . .) وأطــال البقاء عنـــد مذهب الضواري (أو المدرسة التي اعتبرها النقاد في تحفزهـــا وخروجها عن المنطق التقليدي للألوان ، وهجومهـا على القيم التشكيلية كالحيوان الضاري يثور على المألوف من الأشياء ولكنه لايخلو في ثورته وحركته من جمال) — واعتنق المنطق التكعيبي ، وتطلع نحو التعبيرية ، وأخذ يحلق هـذه الايام في عالم التجريد . فهو دائم البحث عن اللغة التشكيلية البحتة التي يصب فيها عمله ، ودائب البحث في لغة الأساليب . وهو ابن صادق لهذه المدينة « الاسكندرية » التي لبست أثواباً من الحضارات ، واستوعبت ضروباً من المدنيات منذ العصر الفرعوني

(١) مقالة بعنوان : « سيف وانلي وغنائية الألوان » لبدر الدين أبو غازي — مجلة « الهلال » بالقاهرة سبتمبر ١٩٦٥ — (تعديلات قليلة في الأحاديث السابقة بعد الرجوع الى الفنان سيف وانلي) .

حتى العصر الحديث ، وظلت دائماً مدينة البحر المتوسط . وفنّ سيف وانلي هو من نتاج هذا البحر ».

وقد نشر عن سيف وانلي الكثير من الأحاديث والدراسات ، ولكنه يقوم الآن باعداد مذكراته بقلمه ، وسوف تزود هذه المذكرات الشخصية المكتبة الفنية العربية بالكثير عن الحركة الفنية الحديثة ...

التيارات الفكرية العربية والعالمية

التيارات الفكرية

معرض الخريف

والندوة الفنيّة

طارق الشريف

في العاشر من شهر تشرين الثاني من كل عام ، يقام معرض الخريف في المتحف الوطني بدمشق ، ويعكس المعرض نتاج فناني القطر العربي السوري الأخير .

والمعرض الذي افتتح هذا العام هو المعرض التاسع ، وقد افتتح بعد الأحداث الأخيرة التي مرت على الوطن العربي ، وكان حصيلتها العدوان الامبريالي على الأمة العربية واحتلال أجزاء من الأرض العربية . لذا كان المعرض يعكس مرحلة حرجة ، تجلى فيها قلق الفنان العربي السوري نتيجة للأحداث التي مرت .

وقد ضم المعرض (١٣٢) قطعة فنية ، منها (٣٥) لوحة عن النكسة ، بالاضافة الى المحاولات المختلفة الفنية التي تصور واقع بلادنا وتأخذ منه .

إن اللوحات بمجملها ، رغم تفاوت قوة الفنانين وتباين أساليبهم ، تعكس محاولات مختلفة من أجل استلهام عنصر تشكيلي معين من البيئة والاستفادة منه وتطويره ، ليصبح منطلقاً فنياً كاملاً . ونستطيع أن نقسم الفنانين من هذه الزاوية إلى فئات مختلفة كل فئة تولي عنايتها لناحية معينة :

١ – الفنانون الذين يحاولون استلهام مواضيع من الحياة الشعبية (الأزياء والالبسة، والعمل الريفي المتنوع) ومنهم: ممدوح قشلان، وليد عزت، غسان سباعي.

٢ – الفنانون الذين يحاولون تطوير عنصر معين مستمد من التراث أو البيئة والوصول بهذا العنصر إلى المرحلة التجريدية احياناً، ومنهم: الياس زيات الذي استفاد من الحفر على الخشب (العجمي)، ومحمود حماد من (الخط العربي)، ونصير شورى من الوان الطبيعة في بلادنا، ونعيم اسماعيل من الاشكال الزخرفية العربية...

٣ – محاولات التعبير عن مواضيع اجتماعية متباينة باسلوبها، وهي مواضيع الاحداث الاخيرة، وتراها في لوحات: نذير نبعة، نعيم اسماعيل، احسان عنتابي...

٤ – رسامو المناظر الذين استمدوا من طبيعة بلادنا وما فيها من ألوان لعكس هذه البيئة. (عبد الظاهر مراد، غياث الناصر، حزقيال طوروس) ... الخ

وبذلك يكون المعرض قد عكس إلى حد بعيد أحداث الساعة، فكان بمثابة السجل الذي يعكس بصورة فنية، الاحداث التي نعيشها، ويرى البيئة والحياة من خلال اللون والخط.

الندوة الفنية:

في سبيل مناقشة أعمال الفنانين الذين قدموا لوحات في هذا المعرض وتقييمها، وفي سبيل التعرف على وجهات نظر الناقدين الفنيين السوريين، اقيمت ندوة نقدم فيما يلي أهم مادار فيها من مناقشات وآراء:

تحدث طارق الشريف عن المعرض، فحاول تصنيف اللوحات المعروضة حسب اسلوبها الفني ومواضيعها، وقسم المعرض الى أنواع ثلاثة:

١ – اللوحات التي تتحدث عن النكسة والنازحين والعدوان الامبريالي على الأمة العربية.

٢ ـ اللوحات التي تتناول الحياة الشعبية والريفية والمناظر :

٣ ـ اللوحات التجريدية التي تمثل بالفنانين الذين يحاولون البحث والكشف عن أشكال فنية مبتكرة وحديثة .

وانتقد بعض اللوحات التي تناولت موضوع (العدوان) من ناحيتين : أولهما سيطرة جانب الاعلان على بعض اللوحات، والثانية فقدان هذه اللوحات القيمة التشكيلية، كما في لوحات (وجيه ستوت) و (بدر الدين مولوي) . أو عدم التوافق بين الأسلوب وبين موضوع اللوحة ، إذ أن اللوحة تكون أحياناً جميلة ، ولكن موضوع العدوان يهز الانسان اكثر من هذه الجماليات التي تصلح لمعالجة مواضيع ثانية . وأشار الى لوحتي (أسماء فيومي) والى لوحتي (إحسان عنتابي) .

ثم تحدث عن اللوحات التي تتناول حياتنا ، وقال عنها إنها تحاول جاهدة أن تعكس حياة بلادنا من خلال أساليب متفرعة . إلا أن فيها المحاولة الجادة للوصول الى الاستفادة مما في حياتنا من عناصر تشكيلية .

وأخيراً تحدث عن اللوحات التجريدية . فنوه بمحاولات إلياس زيات ونصير شورى ومحمود حماد ، وقال إنها أعمال قديمة بأسلوبها، وسبق ان رأينا مثلها في المعارض السابقة .

واخيراً تحدث عن لوحة (غياث الأخرس) وعنوانها (لأن الحقيقة ماتت) فقال :

ـ في رأيي أن اللوحة من أجمل القطع التي حفرها غياث الأخرس ومن اقوى اللوحات التي تناولت موضوع النكسة . انها بمثابة وثيقة ، تركت على الحجر ، أو حفرت عليه ، خلفتها ايام العدوان . وقد كتب الشخص الذي حفرها عليها : ان الحقيقة ماتت ، كأنه يريد أن يترك لهذه الأجيال خلاصة تجربته .

ثم تحدث السيد (غازي خالدي) فنوه بأن الانسان العربي بعد الأحداث الاخيرة يعيش في أزمة وقلق ، لذا

انعكس هذا القلق في هذا المعرض. وقد قسم اعمال الفنانين العارضين الى :

١ - فنانين يمثلون القلق والضياع ، لا نرى في اعمالهم وحدة . تجاربهم مختلفة عن أعمالهم السابقة التي رأيناها . وسبب هذا القلق يرجع الى الهزة التي اصابت الوجدان العربي بعد المعركة . منهم : عبده عساني ، محمود غانم .

٢ - فنانين تقريريين ، اعمالهم يغلب عليها طابع الاعلان والتقرير ، منهم : بدر الدين مولوي ، خالد مز ، وحيد مغاربة .

٣ - فنانين يعيشون ضمن انفسهم دون انطلاق . منهم محمد اعزازي واحسان عنتابي ومصطفى بستنجي .

٤ - فنانين يحاولون التحرر من الواقع الموجود وهم : محمود حماد ، الياس زيات . ويجمعون عناصر ثلاثة اساسية ، وهي : التنظيم ، انسجام العناصر ، الصراحة والمواجهة .

٥ - فنانين ينشدون التطلع الى الأمام ، مزودين برصيد من الماضي . وهم نذير نبعة ، ليلى نصير ، ادهم قوطرش ، رضا حسحس ، فاتح مدرس ، غياث اخرس .

وتحدث السيد يونس حيدر فقال :

في المعرض ظواهر مرضية ، وظواهر صحية ، وبعض الظواهر التي تبدو صحية أحياناً ، تبدو من زاوية أخرى مرضية . لكن الأسئلة الرئيسية التي تتعلق بالمعرض يمكن أن نجملها فيما يلي :

١ - الفن لغة ، فهل استطاع المعرض أن يكون وسيلة اتصال بين الفنان والجمهور ؟!

٢ - هل قام الفنانون بدورهم الحقيقي تجاه الأحداث !؟

واختتم كلامه قائلاً بأن المعرض لم يستطع أن يقوم بدوره الحقيقي ، نظراً لان الظواهر الصحية لم تتغلب على الظواهر المرضية فيه ، ولم يستطع أن يعكس « نار احداث العدوان » كما أحسنا بها .

وتحدث بعد ذلك عدد من الاشخاص

عن المعرض، من وجهات نظر مختلفة. منهم الفنان فاتح المدرس، والفنان خالد معاذ. واشترك في الحديث عدة أشخاص من الحاضرين.

وبعد ذلك طلب من السيد (الكسندر كيدس)، سفير اليونان بدمشق، والناقد الفني والمؤرخ اليوناني، وعضو جمعية النقاد العالميين، أن يتحدث عن المعرض، فأوجز كلمة عبر فيها عن انطباعه الأولي عن هذا المعرض ومما قاله:

— لقد فوجئت بالمستوى العالي للأعمال الفنية المعروضة. أقول انني فوجئت، لانني كناقد فني في بلدي، وعضو في انتقاء لوحات المعارض، أعرف كم من الصور نضطر لرفضها في المعارض. وحين يكون عدد اللوحات المعروضة (١٣٢) لوحة بهذا المستوى، معنى ذلك ان تطور الفن عندكم قد سار اشواطاً بعيدة.

لعل الفن اليوناني الحديث تطور اكثر من الفن العربي السوري، وذلك يرجع الى ان الفن عندنا قد قطع ١٠٠ سنة، والمحاولات الفنية عندكم لاترجع لأكثر من خمسين عاماً.

هناك إذن فرق في الزمن.

ومع ذلك أستطيع القول بأن اللوحات المعروضة ليست أقل جودة من اللوحات الفنية التي تعرض في اليونان.

ولعل مشكلة بلدينا واحدة، عراقة في الفن القديم وتقاليد حضارية ضخمة، وتساؤل رئيسي:

— كيف نصنع الفن اليوم ؟!

وجدت في المعرض، وفهمت من المناقشة أنكم تبحثون قضية النكسة والعدوان الصهيوني. وأتساءل:

— هل من الجائز ان يقوم الفنانون برسم اعمال فنية بعد الحادثة مباشرة ؟!

وبدون أدنى شك سيعبر فنانوكم عن الأحداث التي وقعت بعد مرور فترة زمنية.

وأضاف الناقد:

« ان الفنان الذي استطاع ان يرسم، ويعطي مواضيعه حقها.. المواضيع الشعبية والريفية، يستطيع ان يرسم المواضيع القومية، ويؤديها حقها.

وبنفس الوقت ان الفنان الذي لم يرسم آثار الهزة، لانستطيع ان نقول عنه انه فنان غير قدير ولا مواطن غير صالح. ان الفنان الحقيقي هو الذي يعبر بصورة صادقة عما في شعوره ».

وبعد ذلك نوه ببعض اللوحات التي أعجبته، ومنها لوحة جريس سعد، ولوحة غسان سباعي. وقال بأن الملاحظ ان التعبيرية هي الطريقة الفنية التي تتلاءم مع نفسيتكم وتعبر عن طريقتكم في المعالجة للأعمال الفنية.

واختتمت الندوة بعد حديث الناقد اليوناني عن معرض الخريف.

•

دخان الأقبية

عرض ونقد: أديب منصور

هناك عدة حقائق يجب تأكيدها قبل الحديث عن المسرحية – دخان الاقبية ليوسف مقدسي – اولاً لأنها هامة وثانياً لاستحالة الحديث عن المسرحية بمعزل عنها:

١ – ان مسرحية دخان الأقبية اول جهد مسرحي جاد – يراه الجمهور – يهدف الى ايجاد مسرح محلي شكلاً ومضموناً. هو ليس خلقاً كاملاً، بل اقرب الى التطعيم. وهو ليس نموذجياً ولكنه بالتأكيد ليس – غوغائياً –.

٢ – المسرحية اول تأليف محلي لاينشد الإثارة العاطفية السطحية ولا التهريج. انها عرض حاول ان يقدم ما يريده الشعب، مشاكل المجتمع الحقيقية. بهذا المنظور يمكن اعتبار « دخان الأقبية » قفزة محترمة بعيدة عن الطرح الرومانسي لمشاكل المجتمع، وبعيدة عن معالجة الاخلاق المطلقة والطوبائيات.

٣ – قدمت المسرحية على مسرح بدائي، يخاف المحلي، ولم يتقن عرض العالمي. ورآها جمهور لايثق بالمحلي ويتعثر لفهم العالمي واستيعابه. وبدون مبالغة يمكن وصفه بأنه جمهور لا مسرحي.

٤ – المسرحية اول عمل ليوسف مقدسي، واول عرض محلي لا يتملق

الجمهور ، بل يطلب ويلح ان يحترمه الجمهور .

٥ – المضمون الايجابي لأي عمل ادبي لا يكفي لوصفه بالجيد. هو شرط ، ولكنه ليس كل شيء . وبعض المسألة : فن ام لا فن .

هذه الحقائق او الملاحظات ستكون خلفية نقاش المسرحية . وعلى الفور نجد امامنا هذا السؤال : ماالذي أراد ان يقوله يوسف مقدسي في دخان الأقبية ؟! و كيف قاله ؟ ابشيء من الاختصار يمكن وضع الموضوع على الشكل التالي : طبقة اقطاعية مواجهة لطبقة فقيرة . تحدث شرارة التوتر والصدام الساخن تتنوع ردود الفعل عقبهـا ، يستنقع الواقع ويكون – الخلاص – بيد الطبقة العاملة .

الاقطاعي – السيد الكبير – هو السيد المطلق . ولده – السيد الصغير – مثال الإبن العابث . من على سطح قصره ، يرى فتاة من الطبقة الفقيرة تتعرى . امها تراه . وتحدث المشكلة . يأتي المختار والأم والجارة والجار الى القصر . هناك يقابلون رجلا عجوزاً يعيش من فتات مائدة الاقطاعي ويتعاطف الى حد بعيد مع الطبقة العاملة . يزور السيد الكبير بيت الفتاة التي رآها ابنه تتعرى ويطلب يدها لابنه . توافق الأم والجارة ويحتج خطيب الفتاة – العامل – وتبدأ الاستعدادات للزواج . خلال هذا الوقت يحب ابن الاقطاعي خادم العجوز ، ويعامل الفتاة التي سيتزوجها ببرود . تثور الفتاة وتخرج . يتخلى الابن عن طبقته . تحزن الأم . يضحك العجوز ، تستمر الخادم في صمتها . يفرح خطيب الفتاة . جميع الوجوه تبحث عن الحل . وباختلاط السكر بالحلم بالواقع في المشهد الأخير للعجوز تدخل الخادم بثوبها الأخضر وملامحها الطيبة جداً .

إذن عملية المواجهة بين الطبقتين حتم ان تنتهي بصدام ، ونتيجة هذا الصدام الحتمية ستحسم لصالح الطبقة العاملة والفقيرة .

ويبقى سؤال كيف .. كيف قدم لنا ذلك يوسف مقدسي ؟؟

لم يستطع يوسف ان يتعمق كما يجب في اعماق شخصياته . وبقي على السطح مستخدماً الألوان الغامقة لتلوين القشور. فكانت شخصياته كليشهات ودمى . هذا أبيض وأسود . وكانت احياناً من الميوعة والسذاجة بحيث جعلتنا نحن المؤمنين بالمضمون ـ نضحك ونسخر .

ولأبدأ بشخصية العجوز . . . بدون شك هي من الشخصيات شبه المتكاملة في المسرحية . هو لاينتمي الى طبقة واضحة، ولكنه ثائر سلبي . أو هكذا تريد أن تصوره المسرحية . وهنا لابد من طرح أسئلة : هل هو ثائر اجتماعي بكل معنى الكلمة ؟! وهل اختار نهائياً الطبقة العاملة ؟!

الحقيقة التي تجابه المشاهد هي هذا الطرح الميتافيزيكي للمشكلة الاجتماعية والموضوعة الصراع الطبقي على لسان العجوز في الفصل الاول . اذن هو ثائر رومانسي، بل هو شخص في أفضل الأحوال غير متلائم ثار رومانتيكياً على الاسرة الاقطاعية ولكنه بقي عالقاً بها ، دافناً ثورته ووعيه شبه الغيبي بالسكر الذي زاد كثافة الضباب أمام عينيه . الامر الذي جعله يرى الامور بشكل غائم . هو يحس ـ ولكنه ليس واضحاً . هو لايعبر ولا يطرح مشكلة عامة . أبداً ، الموضوع بالنسبة له قضية ذاتية جداً ، ومن هنا تبدو السقطة الرهيبة . وذلك لان المسرحية وضعت كامل ثقلها على شخصية العجوز هذه مكلفة اياها بأن تكون الوعي والبصيرة والكشاف والرائد . ولكن بدلاً من أن يبدو العجوز كالثوري ـ أو يكونه ـ بدا كالمعتوه ، وبدلاً من أن يصب نقمته أو توتر عدم تلائه أو رؤيته للحقيقة ، بتفجير ثورة او الاعداد لها ، انحصر في ذاته وصب نقمته في الخمر ، ومضى وقته متردداً ـ هشاً ، يتمادى في الحلم الى درجة تمييع القضية والهدف .

قد تكون شخصية منطقية ومقبولة

وواضحة المعالم ـ ولكن الخطأ هو أنها وضعت في المسرحية لغرض آخر . وقد تغيب هذه الحقيقة عنه وعن الكثيرين ـ وذلك لسببين ـ كون الشخصية مثيرة وبراعة هاني الروماني في تقديمها التي بلغت الذروة في ـ الفصل الاخير ـ كذلك حاول المؤلف أن يكون ذكياً في عرض التطور البشري . وتخلى عن ذكائه عندما غرق في التفاصيل وبـــدأ شرح ما قاله رمزاً . هذا هو عيب المشهد وليس ـ السرقة ـ كما قيل .

والشخصية الثانية شبه المتكاملة أيضاً هي الخادمة . التي بقيت صامتة طوال المسرحية . والتي يضج وجهها وتشحن ملامحها باحتمالات المستقبل . والتي نشعر نحن المتفرجين بأنها رغم وداعتها ورغم صمتها تحرك خيوط الاحداث ـ وهي التي تلعب دوراً كبيراً في اتجاهات الاحداث . هي تشغل بين دور مادوز وبين فينوس ، أحياناً هي النسر الكاسر وتارة أخرى هي قلب بروميثيوس هي لا تتحدث ـ ولكنها الارض التي تدور الاحداث فوقها ـ وهي ليست الارض العقيمة ـ انها رمز الخصب ، رمز المستقبل الافضل .

ثم شخصية السيد الكبير ـ جاءت شخصية بلا ظل . بلا أبعاد ـ .. هو اقطاعي وكفى .. ويبلغ التناقض قمته عندما يذهب الى بيت الفتاة الفقيرة ليطلب يدها لابنه الذي رآها تتعرى . كان ذلك صدمة للجمهور . هذا الوحش الذي يرعب الناس ، أتى بكل تواضع الى البيت الفقير ، ولماذا ؟! ليطلب يد الفتاة لابنه ..

وابنه السيد الصغير ، ايضاً هو شبح شخصية ، أو في احسن الاحوال هو شخصية بقيت في ذهن الكاتب ولم يستطع خلقها كما يجب . وزاد من فشل الشخصية اسامة الروماني الذي مثل دور السيد الصغير ، بقي وجهه جامداً وبقي التناقض حاداً بين واقعه والشخصية التي يجب أن يمثلها . وبلغ اضطراب الشخصية حد

التهريج لحظة هذا التغير السريع والمفاجيء عندما احب الفتاة الخادم واعلن انه تخلى عن طبقته ، هكذا وبدون اية مقدمات ابيض واسود ، وهذه ملاحظة عامة على معظم شخصيات المسرحية ، هي لا تنمو وتتغير بدون مبررات ، وكأن المؤلف دهان يغير لون الشخصية هكذا بضربة فرشاة .

انطلاقاً من هذه الملاحظة الاخيرة يمكننا ان نفهم شخصية الفتاة الفقيرة التي رآها السيد الصغير تتعرى . قدمت لنا في البداية على انها مجرد دمية جميلة مخطوبة لشاب من طبقتها . هي لا تحس وهي حيادية حتى لون فستانها حيادي لا يعبر عن شيء وعندما يطلب السيد الكبير يدها لابنه توافق امها ، وبدون اي ازمة او تفكير توافق هي بدورها ، ثم تذهب الى القصر – وفجأة تترك حيادها القديم تتخلى عن الدمية التي كانتها وتعلن فجأة وبشكل خطابي : انا لست دمية . انا لا اريد ان اتزوج السيد الصغير . مرة ثانية لجأ المؤلف الى فرشاة الالوان ليغير شخصياته . بعد ان عجز عن جعلها تتطور بشكل منطقي ومعقول .

ونموذج الشخصية الجاهزة في المسرحية هو شخصية خطيب الفتاة الفقيرة . هذا الفشل المذهل في هذه الشخصية – في رأيي – يجب ان يكون درساً للمؤلف والمخرج ، وللممثل وجميعهم على قدم المساواة يتحملون مسؤولية هذه السقطة . المؤلف ، كما يشتري المستهلك قميصاً جاهزاً في أقرب دكان – مد يده وجلب هذه الشخصية . هي بلا دم وبلا ملامح . الشاب عامل يحب الفتاة . هو إساءة للعامل وسبة للعاشق .

والمخرج بدوره استلم هذه الشخصية الجاهزة ، وضعها في العلبة المخصصة لها ، وكتب عليها السعر . كذلك الممثل اشترى القميص الجاهز ولبسه ، حفظ الكلمات وخرج الى المسرح – هو يقول الكلمات ، لايهتم لخطيبته ، للاقطاعي ، لمنافسه ، لاداعي لتعبير – تونات الصور – ولتعبير الملامح – هو يحفظ دوره جيداً .

وكما قلت المسؤولية يتحملها المؤلف والمخرج والممثل — رغم أني متأكد ان الجمهور سيحمّل المسؤولية الكاملة للممثل — ولنأخذ لقطة واحدة تكشف عجز الثلاثة. عندما تعزل الفتاة في غرفتها بعد أن رآها السيد الصغير عارية. يأتي خطيبها الثائر ليناجيهـا ، معيداً منظر الشرفة في مسرحية روميو وجوليت لشكسبير. مسؤولية المؤلف هنا: ان الموقف مصطنع ومفتعل وزائف . حتى الالفاظ المنتقاة تثير الاشمئزاز ، ومسؤولية المخرج أنه جعل الممثـل يركض فوراً الى باب الغرفة — الذي يشبه باب الزنزانة ، أقول جعله يلفظ الكلمات التي حفظها بسرعة ، هكذا بدون أي تغيير في الضوء او الجو. المخرج يحب الراحة وهذا إساءة للمؤلف وللمتفرج وللممثل .

أما مسؤولية الممثل فهي انه لا يميز بين موقف يقول فيه لخطيبته — انا احبك باحبيبتي — وبين موقف آخر يقول فيه للاقطاعي : سأقتلك ؛ وموقف مناجاة آخر يقول فيه : انا نجم هوى في مستنقع آسن .

هناك شخصيات رسمها المؤلف جيداً. ولكن المخرج احتقرها معتقداً عدم اهمية دورها وهذا ناتج عن عـدم فهمه لهذه الشخصيات، ثم أتى الذين قاموا بالادوار فحققوا فجوة واسعة بين ما اراده المؤلف وما رأيناه على المسرح .

وهذه الشخصيات هي بالتحديد : المختار — الشرطي — الام . الجارة — رسم شخصية الأم بهـذا الشكل يعني ان المؤلف يفهم جيداً العلاقات الاجتماعية . وفي رأيي أن هذه الشخصيات — الام — الجارة — المختار — الشرطي — هي من انجح الشخصيات التي خلقها المؤلف، وذلك لانها ليست جاهزة .هي شخصيات تحس ويسري الدم في عروقها . هي ليست فوق الواقع وانما هي الواقع نفسه ، هي لاتصطنع الموقف — كما حدث مع بعض الشخصيات الاخرى — وإنما هي منسجمة مع نفسها . وكلنا يتذكر التغيير الذي

طرأ على المختار لحظة ذكر ابنته. وكذلك استجابة الام وتغيرها وقت طلب يد ابنتها: «سنصل الى أعلى القصر»، ولحظة انتهاء كل شيء: «ماذا سيقول الناس علينا»، كذلك الجارة ماذا فكرت عقب طلب يد الفتاة – تأمين عمل لزوجها – وكذلك الشرطي الآلة.

هذه الشخصيات كان من الممكن ان تقلل من سقوط المسرحية. ولكن الذي حدث، وكما يحدث دائماً، هو ان المخرج لايهتم الا بالشخصية الرئيسية، اما باقي الشخصيات فهي مجرد – حشو –.

ولكن الحقيقة تبقى ان سبب سقطة هذه الشخصيات هم الذين مثلوا الادوار.. هيلدا زخم.. لم تستطع ان تصبح اماً إلا باللفظ فقط. فشلت ان تطوع شخصيتها – حركة وصوتاً وملامح – للدور، الشيء نفسه حدث مع بهاء سمعان التي قامت بدور الجارة – كانت مجرد شكل يتحرك على المسرح – الشيء نفسه ايضاً – ولكن بنسبة اقل طبعاً – مع شحرور وشفيق.

اما شخصية الشرطي، فقد رسمها المؤلف جيداً. ولكن المخرج بالغ في تصويرها على هذا الشكل الكاريكاتيري الذي بلغ حد التهريج وتملق الجمهور حتى باللفظ.

بعـد هذا العرض لشخصيات المسرحية نصل الى استنتاجات عدة.

واول ما يصدم المتفرج او القارىء هو هذه الفجوة الرهيبة بين ما أرادت المسرحية قوله، وبين كيف قالته. والى حد ما يمكن القول ان ما حدث في المسرحيتين السابقتين – جزيرة الله وبنادق الأم امينة – أكاد اقول انه قد تكرر مع وجود فارق في النسبة طبعاً.

ثم مشكلة الشخصيات الجاهزة، التي لا تنمو ولا تتطور.. هذه مسؤولية المؤلف بالدرجة الاولى، رغم ان المخرج والممثل كان بامكانها التخفيف من حدة فشل هذه الشخصيات، باستثناء بعض الشخصيات. فشل يوسف مقدسي في تقديم

شخصية مسرحية بكل معنى الكلمة . ان مارأيناه هو شخصيات في فترينه ، وليس شخصيات حية .

هـذا كان سبباً ، ويمعنى ما نتيجة ، لعـدم وجود جو مسرحي من جهة — باستثناء بعض اجزاء الفصل الثـالث ولا ولا اقول كله — ولعـدم وجود خيط مسرحي يسري عبر الشخصيات يشدها ويطورها ويجعلها تتمحور حوله . بدون مبالغة يمكن أن تأخـذ اي مشهد في المسرحية فترى انه وحدة كاملة ، يمكن فهمها بمعزل عما سبقها وعما سيعقبها . هذا التفتت في الوحـدات المسرحية مجرد مشاهد متتالية . وفي رأيي أن خلق الجو المسرحي، والقدرة على مسك الخيط المسرحي همـا من اصعب الامور التي تجابه من يتصدى للكتابة المسرحية شعراً او نثراً ... هذه الظاهرة نراها بوضوح في مسرحية ممدوح عدوان الشعرية ـ المخاض ـ إذ يمكن القول انها ليست مسرحية بل تابلوهات متتالية . وربما كان سعد الله ونوس من افضل الكتاب المسرحيين المحليين على خلق جو مسرحي وعلى التحكم بالخيط المسرحي — ولو ملك حسيب كيالي مقدرة سعد الله ونوس على ذلك بالاضافة الى براعة حسيب في الحوار المسرحي ، لكان حسيب مسرحياً جيداً .

وشيء آخر في المسرحية ، وهي أن لغتها ليست مسرحية . وربما كان افشل ما في المسرحية هو حوارها . الحوار المسرحي فن قائم بذاته . وهو مرتبط بالشخصية المسرحية ، وهو العـامل الأساسي في عملية التطوير والنمو . وهو محتاج الى فهم للشخصية ولدراية بعلم النفس ـ ولتمكن مذهل باللغة . كان حوار دخان الاقبية بعيداً جداً عن المسرحية .

• • •

ارجو ألا اكون قد ابتعدت كثيراً عن الحقيقة في هذا التعليق على المسرحية. ومهما يكن فاننا مؤلفين ومخرجين وممثلين ونقاداً وجمهوراً ـ كنا جميعاً مسؤولون عن خلق المسرح المحلي. قد يمر وقت طويل دون ان نتقدم خطوة واحدة.

ولكن المهم عندما نتقدم خطوة ان تكون هذه الخطوة على الدرب السليم. ولذلك لابد من عملية محاسبة قاسية لكل شيء يتعلق بمسرحنا. وذلك بدون اية تعقيدات او حساسيات.

●

مع (أغاني أفريقيا) و(مدينة بلا قلب)

ظافر عبد الواحد

لا أدري ما الذي يجعلني اترك الشعر الذي تتمخض عنه المطابع العربية اليوم ، لأعود الى عام ١٩٥٩ وما قبله ! ربما كان السبب المباشر لذلك أنني وجدت في مكتبة صديق (أغاني أفريقيا[١]) للشاعر السوداني محمد الفيتوري ، و(مدينة بلا قلب) [٢] للشاعر المصري احمد عبد المعطي حجازي . ولكن السبب غير المباشر هو أنني وجدت في هذين الكتابين طعماً يرضي ذوقي اكثر مما يرضيه معظم الشعر الذي تلفظه مطابعنا.

وربما كان السبب في محاولتي الربط بين هذين الكتابين ، أن هذا الشعر في وادي النيل يعبر عن حاجات الانسان العربي آسيوياً كان أم أفريقياً ، والانسان الأفريقي عربياً كان ام غير عربي .

وذلك أن الشاعر المصري ينطلق من الريف المصري الذي هو جزء من الريف العربي والريف الأفريقي في الوقت نفسه. كما أن الشاعر الفيتوري زنجي الجد من

(١) الطبعة الثانية – القاهرة – يونية ١٩٥٦ – دار الهنا للطباعة والنشر .
(٢) الطبعة الاولى – فبراير ١٩٥٩ – دار الآداب – بيروت .

اعالي بحر الغزال، مصري الأم، سوداني الوالد، قضى الجانب الأكبر من حياته في الاسكندرية .

أسمع الفيتوري حضارة حوض البحر الابيض المتوسط قرع طبول أجداده في بحر الغزال. فهو في شعره الحديث الذي لا يفتقر الى التفعيلات، وفي شعره التقليدي الغني بالموسيقى والصور، يحاول بايقاع طبول أجداده أن يقنع الضفة الاوربية من البحر الأبيض المتوسط بعدالة قضية الانسان الافريقي . وفي محاولته هذه لا نجد توسلاً، بل نجده يحطم التمييز العنصري، ويبرهن على أن الموهبة الافريقية قادرة على الإبداع وعلى إغناء التراث الانساني بالمعاني الطريفة والقيم. وليس هذا بالأمر الجديد :

الى وجه أبيض

ألئن وجهي أسود
ولئن وجهك أبيض
سميتني عبداً
ووطئت انسانيتي
وحقرت روحانيتي
فصنعت لي قيداً
وشربت كرمي ظالماً
وأكلت بقلي ناقماً
وتركت لي الحقدا
ولبست ما نسجت خيوط مغازلي
وكسوتني التنهيد والكدا
وسكنت جنات الفراديس
التي بيدي نحت صخورها الصلدا
وأنا .. كم استلقيت في كوخ الدجى
أتلفح الظلمات والبردا
كالشاة .. أجتر الكآبة
عاقداً حولي دخان تفاهتي عقدا
حتى اذا انطفأت مصابيح السما
وانساب نهر الفجر ممتدا
أيقظت ماشيتي الهزيلة
وانطلقت أقودها لمراحها قودا
فاذا سمن نعمت أنت بلحمها
ونبذت لي الأمعاء والجلدا

* * *

لا يا أخي !

ان التهاب مشاعري هيهات بعد

اليوم أن يهدا

هيهات

لم أخلق عليها بومة

تقتات بالديدان أو قودا

أنا كائن أمي وأمك طينة

والنور ليس لأينا جدا

فإلام تحرمني حقوقي

بينا تلقى السعادة أنت والرغدا ؟

وإلام تستعلي بأنفك سيداً

وأنا أطأطىء هامتي عبدا

* * *

إني صحوت ..

صحوت من أمسي

وذي فأسي تهد قبوره هدا

سأكون نارا .. فالحياة تريدني نارا

وأرقص فوقها رعدا ..

فاخلع براقع كبريائك ..

إنني اسكنت جيفة ذلتي لحدا

واضمم يديك إلى يدي ..

نشد معاً صرح المحبة بيننا شداً

* * *

إني أخوك فلا تعق اخوتي ..

فتزيد بركانيتي وقدا ..

إياك .. لاتبذر بذور عداوتي

فتعود تحصد شوكها حصدا

إياك لاتزرع حقولك عوسجا

إني زرعت حقولي .. الوردا

هذه القصيدة التي قالها الفيتوري عام ١٩٤٨ ، تعبر عن الثورة الانسانية التي يعيشها العالم الثالث اليوم ، فهي بقدر امتلائها بالغضب خالية من الحقد .

تمرد على العبودية (فصنعت لي قيدا)

وغضب لنهب الثروات (وشربت كرمي ظالما)

وأخوة تناقض الحقد (لا ياأخي ! ..

إني اخوك فلا تعق اخوتي)

ونجده في قصيدة (أنازنجي) يفخر :

قلها في وجه البشرية ..

أنا زنجي ..

وأبي زنجي الجد

وامي زنجية ..

وكما نسمع قرع الطبول عند الفيتوري:

يا أخي في الشرق ، في كل سكن
يا أخي في الأرض ، في كل وطن

نسمع نغم المجوز عند الحجازي :

أصدقائي !

* * *

وبينما ينطلق الفيتوري من السودان مؤمناً بأصالة الحضارة العربية ، ينطلق حجازي من مصر ليتجاوز بأحداثها الزمان والمكان .

يقول حجازي في قصيدة (مذبحة القلعة) :

الدجى مازال يجتاح المدينه
ونباح من بعيد
وزعيق الحارس المقرور يدوي
ورياح الليل تمضي بالهشيم ،
حيث يهوي ،
في مياه البركة الخضراء يهوي
ونباح من بعيد ،
من بعيد
يختفي
في الصباح الراجف
وتدق الشمس أبواب المدينه
« يا كريم .. »
قالها السقا على بيت قديم
ويموج السوق بالذكر الحكيم
ويحيي الناس درويش صبوح
تحت يمناه تدلت مبخره
تنفخ السوق غيوماً عاطره
ثم يمضي ويصيح
« يا كريم ! »
ومشت في المشربيات العتاق
ضحكات ناعمات
لجوار حالمات
بحرير ، وعطور ، وانطلاق
وضجيج ونكات .
كل لمحه
كل صيحه
ولو الضيحة فرحه
خلفها حزن عريق
صوت بوق !
ـ « عسكر الباشا ! » وينسد الطريق ،

بخليط ،
من بلاد الأرناؤوط
وبلاد الصرب ، والأتراك .. من
كل البلاد
« وسّعوا ياناس للركب ! »
وينسد الطريق
ويثيرون الغبار
عالم يركب بغله
تتهادى في وقار
نقلة في إثر نقله
تقصد القلعة للمحتفلين
والمماليك بدوا فوق الخيول العربية
بالثياب الموصلية
والفراء السيبرية
ببقايا عزهم .. مثل الشهب
يغصبون الابتسام
ويدارون الغضب
وجموع الناس ترنو وتشير
— « آه يا عيني .. لقد أضحوا يتامى
مثلنا ! »
— « ما لهم في الأمر شيء مثلنا ! »
وأشار الناس في وجه أمين بك
ثم قالوا

— « ذلك الوجه القمر
ذلك الشهم النبيل
روع الافرنج في يوم طويل ! »

هذه القصيدة تتجاوز الزمان والمكان. فالمماليك ليسوا مجرد فئة استُعبدت ثم استَعبدت ، وليسوا مجرد طبقة أرستقراطية لها مفاسدها مع فروسيتها ، ولكنهم يمثلون طبقة عجل الاستعمار في إنهاء دورها التاريخي. والأرناؤوط ليسوا شعب ألبانيا على أية حال ، ولكنهم رمز للاستعمار الذي لم يندمج بالشعب ، مقابل المماليك الذين يرمزون الى المستعمرين القدامى الذين ارتبطت مصالحهم بمصالح الشعب في وجه استعمار جديد .

والمماليك يمثلون الحاكم ، الذي مها بلغت أخطاؤه ، يظل مستبسلاً في الدفاع عن الديار .

ليست هـذه دراسة ، وانما اعترف بأنها كانت طريقة مني لحمل القارىء على تذوق هذا الشعر الذي هز اعماقي الفكرية ، وكانت مرة من المرات القلائل التي اشعر فيها بتفاهة كلماتي .

الفاشية في أمريكا *

بول باران

ترجمة : ميشيل كيلو

يمثل تجاهل خطر الفاشية ظاهرة مميزة في الوضع السياسي الحالي للولايات المتحدة الامريكية . ان عدم الاكتراث الذي يبديه مايسمى « بالرأي العام العريض » ؛ كالمثقفين الذين يدعمون الوضع القائم والصحافة المشدودة الى النظام الامريكي ، لايستحق الذكر ، وان كان يمثل جانباً هاماً من وضع وطننا السياسي . اما مايقلق فهو تصرف القوى التقدمية والفئات اليسارية التي تحاول باخلاص الوقوف في وجه الخطر الفاشي ، ولكنها ترفض

(*) بول باران Paul Baran (١٩١٠ — ١٩٦٤) عالم اقتصادي واجتاعي امريكي. من ألمع الأسماء الماركسية في الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين . كان أستاذاً لعلم الاقتصاد في جامعة ستانفورد . وقد ترجمت مؤلفاته الى اكثر لغات العالم، وأهمها : رأس المال الاحتكاري (مع سويزي) ، ونظرية النمو الاقتصادي . أما دراسته حول « الفاشية في امريكا » ،التي نقدمها للقراء ،فقد كتبت عام ١٩٥٢ إبان الحرب الكورية . وهي رغم الفاصل الزمني بين سنة كتابتها ووقتنا الحاضر ، تتمتع بقيمة علمية وسياسية كبيرة ، لأنها تحليل موضوعي للتشكيلات الاجتاعية والعسكرية والثقافية التي تقف وراء السياسة الامريكية التي صنعت عام ١٩٥٢ مأساة كوريا ،وتصنع اليوم مأساة فيتنام وفلسطين وكوبا . هذه الدراسة مأخوذة من الترجمة الالمانية لكتاب« اضطهاد وتقدم » للمؤلف ، مطبعة سور كامب — فرانكفورت ١٩٦٦ .

في نفس الوقت اعتباره ممكناً ، او حتى محتملا في هذه المرحلة من تطور الرأسمالية الامريكية . ولهذا فان اهتمام « المجلة الشهرية» Monthly Review، بظاهرة الفاشية في امريكا يستحق الثناء والشكر، خاصة وأنها ، وهي التي تكتب في أطر تاريخية علمية ، قد اشارت الى هذا الخطر بتكرار وحصافة مظهرة أنه جدي وأن التفاؤل السائد حياله ليس الا ضرباً من الجنون .

بصورة عامة يعتمد التفاؤل اليساري حيال ظاهرة الفاشية على الرأي الخاطيء القائل بأنه يمكن الحكم على نظام سياسي بالفاشية عندما يبدي مظاهر مشابهة لتلك التي تميزت بها الفاشية كما كانت قائمة في المانيا وايطاليا . هذه المظاهر التي تتبدى في الاعتماد على حركة جماهيرية لها منظمات شبه عسكرية كالقمصان السوداء والقمصان البرونزية في ايطاليا والمانيا ، وفي وجود نظام حزب واحد على رأسه زعيم يمثل أسس السيطرة المطلقة في شخصه. ويعتقد اليساريون كذلك ان القومية العرقيه وعداء السامية هما من مزايا الفاشية ، وحتى يمكن وصف نظام ما بالفاشية ، فانه يجب أن يكون ، حسب رأيهم ، معادياً لليبرالية، يضطهد أية معارضة ، ينكر على المواطنين حرياتهم ولا يعبأ لحقوق الانسان.

من الواضح ان الوضع السياسي في الولايات المتحدة لا يترك سبباً للقلق والخوف ، اذا ما طبقنا عليه هذه المقاييس . فلا توجد في امريكا حركة جماهيرية فاشية ولا تفرق فرق العنف الفاشية شوارع مدننا في بحر الرعب وليس من المعقول مقارنة ترومان أو ستيفنسون أو أيزنهاور ، لا في المطامح الشخصية ولا النوايا السياسية ، بهتلر أو موسوليني . ومع ان اللاسامية والعرقية يلعبان دوراً هاماً في الايديولوجيا السائدة في امريكا ، الا أن نفوذهما ليس حاسما ، ذلك لأنهما وجدا في الماضي دائماً جنباً الى جنب مع عناصر تقدمية وديمقراطية . ورغم أن المعارضة التي تنتقد الوضع الحالي معرضة للملاحقة والاعتقال والعقوبات ، فان من الخطأ الادعاء بأنها لا تملك اي نوع من انواع الحقوق ، فصحفها لا زالت تنشر ويمكنها التعبير علانية عن آرائها . ان الاوساط السائدة والحكومة يدعيان ، فضلاً عن ذلك، انها لا تزال الان أمينات للدستور حتى لو حدت من حريات المواطنين وحقوق الانسان وخرقاها باستمرار، وتصدر المحكمه القضائية العليا أحياناً أحكاماً للحفاظ على اسس « المحاكمات العادلة » وحماية « مساواة الجميع امام القانون » .

ان طريقة التفكير هذه حول الفاشية خاطئة ، فهي بملاحظتها « المجردة » لتجربة الفاشية الالمانية تركز كل اهتمامها على شكل الاحداث السياسية ومظاهرها دون مراعاة محتواها الاجتماعي واتجاهها التاريخي . ان تعدادها المظاهر السابق وصفها ليس بدون

اهمية ، ولكن الامر هو معرفة ان هذه المظاهر تختلف باختلاف البلدان والأزمنـــة ، وانه يتعذر ، بدون معرفة المحتوى الاجتماعي والاقتصادي للقضية التاريخيـــة ، فهم الأحداث السياسية الخاصة وتقدير اهميتهـــا الحقيقية .

* * *

الفاشية هي نظام سياسي تطوره المجتمعات الرأسماليـــة في عصر الاستعمار والحروب والثورات الاجتماعية والوطنية لكي يقوي الدولة كأداة للسيطرة الرأسمالية ويلائمها مع متطلبات العصر الذي يمتاز بعنف صراعـــه الطبقي على المستويين القومي والدولي . ان انتشار الفاشية يعتمد على مجموعة من العوامل المختلفة المتلازمة هي :

١ — أزمة النظام الرأسمالي الـــتي يمكن متابعتها حتى انفجار الحرب العالمية الاولى ، والتي سلبت البلدان الرأسمالية امكانية الحفاظ على استقرار حياتها الاقتصادية والسياسية ، وحالت دون الحفاظ على مستوى معيشة معقول ودرجة تشغيل مقبولة ، دون تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية وتوجيها لها .

لقد كان لاشتراك الدولة في الحياة الاقتصادية زمن ازدهار الرأسمالية ، أي في مرحلة «دعه يمر » ، اما طابـــع اكثر تخصصاً كفرض الضرائب وتحديد اوقات العمل وتنظيم شروطه بالنسبة للنساء والاطفال ، او أنه كان محدوداً زمنياً — نقل ملكية الاراضي الى الرأسماليين أو الشركات او مؤسسات بنـــاء الخطوط الحديدية ... الخ ... . أما تدخلها الراهن في الحياة الاقتصادية فيأخذ في ظل ظروف الأزمة العامة للرأسمالية طبيعة نوعية جديدة ، اذ يجب عليهـــا تأمين الاسواق لمنتجات الرأسماليين المتزايدة ، وتمثل استثماراتها الكبيرة في الاقتصاد عاملاً لاغنى عنه لاستقرار النظام الاقتصادي ككل ، وتعادل مشترياتها من البضائع وغيرها من الخدمات في الولايات المتحدة على سبيل المثال ٨٤٫٨ مليار دولار او ٢٢٪ تقريباً من مجموع الدخل القومي ، وتكون بذلك اكبر بـ ٢٠ مليار دولار من استثمارات رأس المال الخاص ، مع العلم بأن تقـــدير استثمارات الدولة بـ ٢٢٪ لايعطي صورة صادقة عن نفوذها الحقيقي ، لأنها بدعمها استثمارات الرأسماليين عـــن طريق استثماراتها الخاصة تحـــدد بدرجة كبيرة مستوى دخل ودرجة تشغيل الجماهير .

من جهة ثانية فان تزايد أعضاء نقابات العمال المستمر ونفوذها المتعاظم يحمل الدولة على القيام بـــدور هام في مفاوضات الاجور وشروط العمل وحقوق النقابات ، فلكل خلاف حول الأجور أهمية كبرى بالنسبة لكل البلاد ، ولكل اضراب عمالي تأثيراته على مجمل الحياة الاقتصادية . ولهذا فان الحؤول دون قيام الاضرابات ، أو انهائها بسرعـــة في حالة نشوبها ، صار من أهم واجبات الدولة .

ان الاستثمارات الكبيرة للدولة وطريقة توزيعها وسياسة الحكومة العالية هي قضايا ذات علاقة كبيرة بمصالح الرأسماليين الحيوية التي لا تتعارض مع توظيفات الدولة في المشاريع الاجتماعية المخصصة لرفع مستوى معيشة اصحاب الدخول الدنيا ، ولكنهـا ترفض رفضاً قاطعاً اشتراك الدولة المباشر في مشاريع اقتصادية رابحة ، نظراً لأن هذه المشاريع هي الدعائم التي تستقر عليها سلطة رأس المال الخاص وقدرته . إن أهم نفقات الدولة بالنسبة لرأس المال الخاص هي صناعة التسلح والدعم الاقتصادي والعسكري للبلدان الأجنبية « الصديقة » التي لاتتخذ اي اجراء يتعارض مع النظام الرأسمالي او يتناقض مع السيادة العملية لنظام الربح . هذه من الناحية الاقتصادية ، هي سياسة رأس المـال ، أما سياسته العمالية فتكمن في مطالبته المستمرة بتضييق صلاحيات العمال في نضالهم من أجل أجورهم ورفض مطالب النقابات التي توصف دائماً بأنها « مبالغ بها » .

إن لتدخل الدولة في شؤون الطبقة العاملة والخدمن سلطتها أهمية كبيرة بالنسبة للرأسماليين ولهذا فهم يلقون بكل ثقلهم ضد أي نشاط مساير للعمال، والحال ان نفوذ الطبقة الرأسمالية قد بلغ حداً جعلها لايستطيع في ايامنا الراهنة ترك تكوين الحكومة ووضـع الخطوط السياسية العامة للديمقراطية السياسية « غير المقيدة » ، ذلك لأن خطر « الحوادث » المزعجة كبير جداً في المجتمعات الديمقراطية ، خاصة وان الديمقراطية السياسية والاجتماعية في المجتمع الرأسمالي تكون ناقصة بطبيعتها . إن تكوين حكومة «غير مرغوب بها» يمكن ان يكون نتيجة لموجة عامة من الاستياء او لحملة دعائية معارضة اولاستياء بعض اصحاب المصالح الخاصـة او نوايا بعض السياسيين الأذكياء ، وقد يفتتح وضع تاريخي جديد مرتبط بأزمة اقتصادية ابواب البيت الأبيض لحاكم كفرانكلين روزفلت او لحـاكم مهتم بالتأييد الشعبي ، مما قد يدفعه الى تعيين علماء « غريبين عن العـالم »او « بعض الحالمين بالعدالة الاجتماعية » كرؤساء لأجهزة الادارة . أنئذ قد تأخذ سياسة الحكومة خطاً معادياً لمصالح رأس المال الكبير ، كما قـد تكون نتيجة حكم كهذا اصدار مايشبه (مبدأ وغنر Wagner Akt) او مكافحة الاحتكارات او سياسة ضرائبية تقدمية ، وهـذا ما يجب منعه بكل وسيلة .

٢ – ضرورة إخضاع البلاد لشبكة رقابة محكمة تتلاءم مع براعة الرأسماليين في استخدام القوة الاقتصادية المتنامية كقوة سياسية .

لقد كانت الطبقة الرأسمالية تسود الدولة في امريكا حتى قبل الحرب العالمية الأولى ، ولكن طبيعة الدولة آنذاك كانت مغايرة لما هي عليه اليوم ، كما ان طبيعة الطبقة الرأسمالية ليست اليوم ما كانته بالأمس . ففي تلك الفترة (قبل الحرب العالمية الاولى) كانت الدولة

تخدم اغتناء بعض رجال الأعمال اغتناء سريعاً، فكانت تقوم بتوزيع الأرض عليهم وتمنحهم امتيازات وحقوق مواطنة، وكان من واجبها كذلك غضّ النظر عن مجرمين ومحتالين. باختصار، لقد كانت الدولة عرضة لتدخلات مستمرة من قبل الرأسماليين، ولكن هذه التدخلات لم تكن منظمة ولم تكن لصالح مجموع المالكين كطبقة، بل لصالح افراد او جماعات منهم. ومن جهة اخرى لم يملك هؤلاء من القوة والتنظيم ما يجعلهم يفرضون على الدولة مسايرة أعمالهم ومصالحهم بشكل عام، فهم في تطورهم من أرباب اعمال صغار الى رأسماليين كانوا مضطرين الى مزاحمة بعضهم بحدة على السوق وفي سبيل توطيد مكانهم تحت الشمس، فرقتهم خلافاتهم كطبقة اجتماعية واعاقتهم عن القيام بأعمال حاسمة، حتى ولو كان ذلك ضرورياً لهم كطبقة. هذا الوضع مكّن العمال والطبقات الوسطى من التأثير على السياسة في بعض الأحيان، اما عن طريق الانتخابات، او من خلال تحالفات مؤقتة مع بعض الفئـــات الراسمالية او الاقطاعية المتذمرة، وقد انعكس ذلك على الاجراءات الحكومية التي لم تكن في معظمها سوى حلولاً وسط بين مصالح متضاربة. المهم ان العمال والطبقات الوسطى تمكنوا من تحقيق بعض مطاليبهم بفضل هذه الظروف.

هذا الوضع تغير كلياً عندما أصبحت المصانع الكبيرة والمؤسسات الاحتكارية الشكل المركزي السائد لطريقـــة الانتاج الرأسمالية. ولأن بضعة مئات من الشركات تراقب اليوم القسم الاكـــبر من الاقتصاد الأميركي، فقد توصل أصحابها كممثلـــين للطبقة السائدة الى سلطة لاحدود لها تعتمد على التركيز الضخم للملكية والسلطة. ان هذه الفئات لاتتحرق شوقاً الى غنائم الربح فحسب، بل تهتم كذلك بتحويل الحكومة الى ادارة منظمة تعمل بصورة مثالية في خدمة مصالح رأس المال. وهذا ماجعل الدولة ممثلة لمصالح هذه الفئة القائدة في الطبقـــة الرأسمالية المسيطرة ومعبرة عنها فقط دون غيرها من الفئات. ان سادة الـــتروستات الكبيرة الذين يديرون احتكارات مذهلة التنظيم تعمل بأحدث الوسائل يرفضون حكومة تقوم سياستها على التجارب ولايطيقون ان تكون مهام الحكم معرضة لاحتمالات الطريقة الديمقراطية، ولايتركون سياسيين مترددين او معتدلين ينوبون عن مصالحهم، بل يفعلون ذلك بأنفسهم، مما حول الحكومة الى اكبر شركة في البلاد وحصر أهميتها في دورها كأداة للحياة الاقتصادية. ان الفئة القائدة في طبقة الرأسماليين المسيطرة تولي الدولة اهتماماً متزايداً جعلها تدفع ممثليها من المحامين ومدراء البنوك الى استلام.. مناصبها الهامـــة، وإن رجالا كهمفري ولوفيت وما كلوي ودالس اصبحوا رموزاً تمثـــل

ارتبـاط رأس المال الكبير بسلطة الدولة الضخمة .

٣ – سياسة التشغيل العام المتبعة في اميركا والتي تقوم ، من جهة ، على توظيف رؤوس الأموال في صناعة التسلح ، ومن جهة أخرى على بذل جهد اكبر لكسب مناطق نفوذ سياسي (أي مناطق لتوظيف رؤوس الاموال) في البلدان الأجنبية. هذه هي النتيجة المنطقية لتضخم القوة العسكرية التي تتمتع سياسياً بمكانة خاصة تتبدى في أن الجنرالات اللذين يدّعون وقوفهم فوق الأحزاب ، يملكون منذ أمد طويل سلطة كبيرة في الحزبين السياسيين الكبيرين في اميركا . ونظراً لأن المصالح الهامة للعسكريين تتطابق مع مصالح الرأسماليين وبالعكس، فان كليهما يدعم الآخر، فبينما يطالب العسكريون بمزيد من المدافع والتجهيزات والمعدات الحربيــة ، تطالب الشركات الرأسمالية (الواقفة وراء الحكومة) « بمصروفات عادلة » ، أي بمصروفات من أجل صفقات الاسلحة وباستثمارات وضمانات حكومية « لتأمين أجور العمال » ، وبينما يحتاج الجنرالات بعد اقالتهم (أو قبلها) لمساعدات مالية يحسنوا بها احوالهم ، يحتاج الرأسماليون الى الجنرالات ليدخلوا بعض البهاء الى صفوف مدرائهم وليتطبعوا بطبائع مشتري السلاح العسكريين ، ولأجل الفوز بدعم « الرأي العام » المنتظر . ان تمـازج رأس المال الكبير مع سلطة الدولة الضخمة يتدعم بتحالفهما مع العسكريين العظام .

٤ – ان قدرة هذا الخليط من رأسمال احتكاري وعسكرية وبيروقراطية عـلى الاستمرار ترتبط بالدعم الذي يلقاه من الرأي العام ، أي من قاعدة جماهيرية ثابتة . وان الطريقة التي تخلق هذه القاعدة بها وترسّخ، هي التي تكوّن الفروق المميزة للبلدان الفاشية. في المانيا وايطاليا كان توظيف القسم الاكبر من ثروات الشعب في صناعة التسلح والمحافظة على مراكز سلطة رأس المال الاحتكاري وتأمين ارباح وافرة له ، ممكناً فقط عـلى حساب مستوى معيشة الجماهير . لقد أحسّت أقسام الشعب ذات الدخل المنخفض بلاعقلانية النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد ، وكان العمال الاوروبيون الذين نشأوا في ظل حركة عمالية مستقلة عرّفتهم بتعالـيم الأحزاب الاجتماعية الثورية ، عائقاً جدياً في وجه اقامة نظام فاشي . لهـذا كان تحطيم الاحزاب الاشتراكية والشيوعية وسحق نقابات العمال ومؤسساتها الثقافية المقدمة الحتمية لإقامـة وتركيز سيادة الفاشية في هذين البلدين ، ولم يكن تحقيق ذلك ممكناً الا بالتهديـدات والتحديات وبمعسكرات الاعتقال وفرق الضرب ، وباستخدام وسائل كثيرة لملائمة الرأي العام مع متطلبات النظام وعلى رأسها تحويل طرق التفكير السائد الى طرق فاشية . لقد قدمت الفاشية لرجال فرقة الصاعقة مثلا الى جانب الدخل اللائق ، احساساً جديداً

بالكرامة ومركزاً اجتماعياً جديداً ، وكان لاسطورة تفوق « عرق السادة » ، الى جانب وظيفتها الايديولوجية ، وظيفة عملية تماماً ، ألا وهي مصالحة العاطلين عن العمل من العمال وأعضاء الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى مع وضعهم الاقتصادي السيء ، وكذلك توجيه الروح الهجومية للطبقات المستغلة ضد الطبقات الحاكمة السائدة ، فقد بدأت دعاية معــادية للسامية تمتاز بتنظيمها الدقيق المدهش . ولم يتعب الفاشيون في سبيل خلق شعور بالانسجام والتضامن الاجتماعي ، من رسم خطر خارجي ، في حين كان هدفهم من ذلك تجاوز الفروق الاجتماعية في بلادهم نفسها وتبرير نفقات التسلح العملاقة ، وإننا نعرف اليوم أن « التوافق الايديولوجي » قد حقق في ألمانيا قدراً كبيراً من النجاح زمن الفاشية . وهو لم يبرهن فقط في « بوخن فالد » و « داخاو » و « برجن فازن » على جدواه ، بل ان الاخلاص الأعمى والطاعة حيال النظام الفاشي بقيا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وياوحان اليوم وكأنها صفتان ملازمتان للشعب الألماني .

ان الظروف في ايطاليا واليابان واسبانيا لم تكن مختلفة عن ذلك كثيراً . ومن المؤكد أن معسكرات الاعتقال في هذه البلدان ، حتى ولو كانت تحمل أسماء اخرى وكان ضحاياها من غير اليهود ، تتشابه كثيراً مع مثيلاتها في ألمانيا ، بالرغم من أن هذه البلدان لم تحرز نفس النجاح في تحضير عقيدتها الفاشية ، كما كما كان الحال في ألمانيا .

ان المحاولات المبذولة في الولايات المتحدة لكسب الرأي العام لصالح نوايا فاشية تختلف في كثير من النقاط عــن النمط الالماني . ويكمن أهم هذه الفروق في حقيقة ان نفقات التسلح لم تؤثر على مستوى معيشة الشعب ، بل حسنته . لهذه الحقيقة وزناً كبيراً ، لأنها وان لم تحطم مقاومة الشعب لسياسة التسلح ، فقد أضعفتها الى درجــة ان الشعب لا يعارض تحالف رأس المال مع العسكريين . من الصعب الزعم بأن هذا الوضع العام قد يتغير ، أو ان معارضة جدية ستنشأ ضده . نظراً لأنــه لا توجد في أمريكا احزاب يسارية قوية ، فان خلايا المقاومة الضرورية ليست موجودة ، وليس بامكاننا ، من جهة اخرى ، اعتبار نقابات العمال نقاط تجمع لمعارضة محتملة ، لأن هذه بدورها قد تلاءمت نهائياً مع الوضع القائم . ان قادة الـ AFL (١) و C.I.O الذين يمثلون الاقسام العمالية ذات الدخــل الجيد لا يفكرون ولو بمجرد الغاء او معارضة هذا التحالف ، بل يجهدون انفسهم لكي يلعبوا دور الحليف الأول فيه .

ليس من الضروري إذن ، والحال كذلك ، حشر قادة المنظمات العمالية في معسكرات الاعتقال ، أو تحريض الشعب على اضطهاد

(١) أكبر النقابات العمالية الأميركية .

أولئك اللذين يتبنون افكاراً معارضة . ولكن هـل يعني هذا أن هذه الظروف ستستمر إلى الأبد ؟ علينا أن نتصور بأن الجماهير التي تؤيد اليوم نظاماً سياسياً يقدم لها التشغيل الكامل والدخل المادي الجيد من انتاج الأسلحة ، قد تنهي صداقتها مع هذا النظام الذي لايستطيع تقديم العمل لها إلا في ساحات القتال، او ان من المنطقي أن تحاول الفئة القائدة في الطبقة الرأسمالية المسيطرة ، خوفها من فقدان الجماهير ، تجميع أنصارها وبذل كل نشاط ممكن للعمل على تماسكهم . في هذا الإطار تصبح المعالجة الايديولوجية الشعب بالغة الأهمية في توطيد تحالف رأس المال مع العسكريين ، كما يصبح من الضروري ، لابل الحتمي ، أن ينقش في أذهان الأميركيين أن ثمة خطراً خارجياً يتهدد كيانهم وأن نفقات التسلح المتزايدة ليست سوى شكلاً وقائياً لمجابهته ، وأن وجودهم يتطلب بقاءهم مستعدين باستمرار للدفاع عن الوطن . بمثل هذه المزاعم يبرر كذلك كل اضطهاد المعارضة داخل الولايات المتحدة نفسها . ولقد تم فعلاً إبعاد الشيوعيين والاشتراكيين المستقلين وأعداء الفاشية عن مناصبهم في كل المجالات بحجة أنهم « جواسيس لبلدان أجنبية » يخونون الدولة والشعب . وتعمل موجة عارمة من الدعاية الرسمية وشبه الرسمية التي تموّلها الدولة والشركات الرأسمالية لصبغ تفكير الناس بصبغة عسكرية ، كما تم تطوير نظام إكراه اقتصادي واجتماعي هدفه سلب الأفكار المعارضة والآراء العلمية والمفاهيم الأدبية كل شرعية ونفوذ ، مما أدى الى سيطرة الفساد في الثقافة والسياسة ، وفقدت مبادىء الإنسانية والشجاعة الأدبية والشرف كل صلاحية لهـا في الحياة العامة ، فأفسدت طرق البحث السوقية الرخيصة قسماً كبيراً من المثقفين الاميركان وافقدتهم احترامهم للوعي وقدرتهـم على التمسك باختيارات أخلاقيـة ، ووطدت الفلسفة الذرائعية العقيمة سيادتهـا في كل المجالات بنظرياتها الناجعة التي ليست سوى « علم » احتواء الإنسان رأسمالياً بقصد طمس كل محاولة علميـة لتحليل سلوكه . لقد رفعت الذرائعية ، وهي علم الانسجام مع النظام القائم ، « الآلية » النظام الى مرتبة هدف بذاته ، وفصلها بذلك عن شروطها ومعناها. وبالرغم من أن من لايعتنق هذه الأيديولوجية أو ينتقدها لايتعرض للإضطهاد ، إلا أنه يغدو محط احتقار الجميع ، وقد يؤدي به الأمر، في بعض الظروف ، الى فقدان عمله ليصبح مشكوكاً به من السلطات الحاكمة .

إن التركيز السياسي والايديولوجي لهذه الضغوط والأحكام المسبقة والطرق، يكوّن شروط السياسة الخارجية للطبقة السائدة في الولايات المتحدة ومقومات الدور الذي تلعبه بلادنا في الصراع الطبقي الذي يكتسب في زمن الاستعمار والحروب والثورات طابعاً دولياً . وبمـا أن هدف الطبقة السائدة في

اميركا هو تأييد الرأسمالية والاستغلال حيث يبدو ذلك ممكناً ، فأنها تكافح لدعم السيطرة الكولونيالية والأمبريالية حيث تبدو هذه على وشك الانهيار ، كما تكافح لقمع الثورات الاجتماعية ببناء تحالف مقدس لخلق الثورة المناهضة في كل مكان تنتصر فيه الثورة . إن نجاح السياسة الاميريكية ، التي تقلد في نقاط كثيرة سياسة هتلر المضادة للكومينترن ، تفسر وتتعلق بعامـــل واحد هو القوة العسكرية ، سواء في داخل أميركا أم في البلدان الأجنبية التابعة لها ، وهناك براهين كثيرة على أنه يوجد في الولايات المتحدة أناس ذوو نفوذ يودون لو استخدمت هذه القوة العسكرية حالاً في الحرب ، ويبررون ذلك بخوفهم من أن تتمكن البلدان الاشتراكية من الوصول الى توازن مع الغرب بتوطيد نظامها الاجتماعي والاقتصادي . ثمة ايضاً فئة أخرى من أصحاب النفوذ الكبير تنصح بالحذر وبالتحضير الكافي للمعركة الكبيرة القادمة ، لأنها غير واثقة من إحراز النصر الآن . وإن بعض القادة كبرادلي وايشنهاور يشبهون الى حد كبير الجنرالات المحافظين الألمان الذين ضغطوا على هتلر لتحضير الحرب ضد الاتحاد السوفياتي ورفضوا فقط المغامرات الخطرة التي قد تدفع البلاد الى خوض حرب في ظروف غير مناسبة ، بنصف قوتها ، وبدون حلفاء . ولكن هاتين الفئتين تتفقان على تحويل بلادنا الى قلعة للثورة المضادة في العالم ، وتتوافقان في سبيل هذه الغاية ، على استخدام كل الوسائل المتوفرة لمنع انتصار الاشتراكية وسحقها. إن الولايات المتحدة ليست بحاجـــة الى معسكرات اعتقال في أميركا نفسها ، ولكنها بنتها في كوريا حيث تحتاجها .

إن الطبقة السائدة في أميريكا تتبنى محتوى الفاشية دون أشكالها الكلاسيكية ، ولا تطبقها على أميريكا بالدرجة الأولى ، بل على البلدان الثائرة ، وهي تعتبر الفاشية عقيدتهـــا ووسيلتها لقمع كل ثورة كما تفعل الآن في كوريا وفعلت سابقاً في الصين . وحتى تخلق شعوراً بالتفوق عند الجندي الأميريكي ، فانها تلقنه له الإقامة في الاستحكامات العسكرية في كوريا بحقنه بنظريات عرقية حول « البرابرة القذرين » و « ذوي العيون المشقوقة » ، وتحاول إلهاب حماسه ضد الشعوب الأخرى حتى بالأسماء التي تطلقها على العمليات العسكرية مثـــل « القاتل » و« الخانق » . إن نتيجة هذه السياسة التي تلقن الجنود الامريكيين التعاليم الاساسية للفاشية هي خضوعهـــم التام للأوامر وتنفيذ أكثر العمليات قذارة بكل إخلاص ، ولهذا فهم يحرقون القرى الآمنة ويصبون النابالم على النساء والاطفال ويدمرون اهـــدافاً بدون اية قيمة حربية .

لقد وصف كارل ماركس هذه الطرق

بالعبارات التالية : « إن نفــاق الحضارة البرجوازية وبربريتها يتضحان للعيان عندما ننتقل من البلد الأم ، حيث تعطى لها صوراً وقورة، إلى المستعمرات حيث توجدان بشكل مفضوح » .

ان تحالف رأس المال الكبير مع العسكرية يكتسب في ايامنا الراهنة وبصورة متزايدة سمات نظام فاشي ، وبغض النظر عن الصورة التي تتخذها عملياته المتفرقة، فان هذا التحالف يقوم بكل النشاطات التي تقتضيها الفاشية ، ويطور نفسه تحت أعيننا وبسرعة كبيرة الى شكل خاص للحكم الامريكي في ظل النظام الرأسمالي وفي عصر الاستعمار والحروب والثورات القومية والاجتماعية. هكذا تتحول الحكومة الامريكية الى أداة للصراع الطبقي في الولايات المتحدة والعالم بمجموعه .

في المكتبة العالمية

رواية كازانتزاكي

«المسيح المصلوب من جديد»

عرض: جمال الشحيد

لاجرم أن عنوان هذه الرواية يدل على وجود جو ديني في تضاعيفها ، بيد أن المتأمل في أبعادها يتيقن ان هذه الرواية رواية انسانية تعكس فلسفة الوجود والموت وتظهر واقع الشخص البشري بكل مرارته ورغده . على أنها مازالت نوعاً ما مستغلقة على قراء العربية ؛ لذلك سنحاول التعريف بها ، آملين يوماً أن نراها مترجمة الى لغتنا .

لقد استوحى كازانتزاكي هذه الرواية من واقع الريف اليوناني الذي يشبه كثيراً أريافنا العربية ، فأبدع بخياله الجبار رواية مؤثرة تدور رحاها في قلب هذه البيئة القروية بعاداتها وتقاليدها ونفسيات فلاحيها . فأتت روايته هذه من عيون الأدب العالمي المعاصر ، ومن أشهر روائعه شهرة وازدهاراً ، لاسيما بعد إذ حولها المخرج جول دازين الى فيلم سينمائي كبير .

موجز الرواية :

في قرية من قرى اليونان التي مازالت خاضعة تحت حكم الاقطاع التركي، يرتأي الأب غريغوريس ، كاهن الرعية ، أن يمثل آلام السيد المسيح قبل عيد الفصح ،

فيعين هو واعيان القرية الممثلين، ويعطوا لكل دوره ليستعد له في داخله. فينال الفتى الراعي مانوليوس دور المسيح ، ونيا كوس وميشليس وكوستانديس أدوار الرسل المفضلين ، وبانائيوتيس دور يهوذا الخائن. وبينما القرية مهتمة بهذه الامور ، إذا بسكان مشردين قد لجأوا اليهم مع كاهنهم الأب فوتيس بعد إذ نجوا من مجزرة تركية ، وكانوا يأملون ان يلاقوا من أبناء ليكوفريسي عطفاً وكرماً ، فيقتطعوا لهم قسماً من أراضيهم الشاسعة المهملة كي يعملوا فيها . ولكن الأب غريغوريس رفضهم وألب عليهم أهل القرية متذرعاً بأنهم مصابون بوباء الكوليرا . فهربوا الى الجبال المجاورة يستكدون . بيد أنهم لاقوا من بعض أهل القرية عطفاً ومودة ، لاسيما من مانوليوس ورفاقه الرسل المفضلين .

وذات يوم بينما كانت القرية في أمنها وسكينتها ، إذا بغلام الآغا المسمى يوسوفاكي يوجد مقتولاً في قصر الآغا . فيحتدم غضب الآغا ويلقي القبض على أعيان الضيعة ويهم بهم ، ويعلن انه سيشنقهم واحداً واحداً الى ان يعلن القاتل عن نفسه . وفي هذه الأثناء يتقدم الفتى كانوليوس ليقدم نفسه ضحية عن أهل القرية . وعندما أوشك الآغا ان يشنقه إذا بالجريمة تكتشف، واذا بمرتكبها من داخل القصر الاقطاعي نفسه .

وبعد هذه الحوادث يزداد الجوع في صفوف المشردين اللاجئين الى الجبال ، بالرغم من انضمام مانوليوس ورفاقه اليهم . فيضطرون الى السرقة ، مما أثار حفيظة الاب غريغوريس وزمرته عليهم . وفي هذه الاثناء توفي والد ميشليس الغني ، فوزع هذا ثروته على المشردين والتجأ اليهم ، فثارت ثائرة القرية واعتبرت كتاب التمليك لاغياً ونعتت ميشليس بالجنون . فهجم المشردون المتضورون جوعاً على القرية يبغون الاستفادة من أملاكهم الشرعية ، فتصدى لهم أهل ليكوفريسي بقيادة الأب غريغوريس ، وأوشكت الواقعة ان

تقع بين المعسكرين، فإذا بالأب فويتس، راعي المشردين، يتحدى الاب غريغوريس راعي ليكوفريسي، ويشترطان ان يرجع المشردون من حيث أتوا إذا انتصر الاب غريغوريس البدين والقوي على الاب فويتس المسن والناحل. وبدأ العراك بين الكاهنين وانتصر الأب فويتس. بيد ان سكان ليكوفريسي لم يرضوا بذلك وهجموا على المشردين يصدونهم عن دخول قريتهم. ووقعت الواقعة بين الفريقين، وكان النصر حليف المشردين الذين اعتصموا بيت ميشليس المحسن اليهم. فاحتدم غضب الاب غريغوريس وزمرته، فذهبوا الى الآغا يشكون له سطو المشردين. وشكوا مانوليوس بتآمر سياسي على تركية. فألقى القبض عليه، أو بالحري هو أسلم نفسه. ولما لم يجد الآغا عليه إثماً، أوشك ان يطلق سراحه. ولكن ثورة الجمهور الذي أثاره الأب غريغوريس أجبرت الآغا ان يعيد النظر في حكمه. وكأني بمانوليوس شعر بأن عليه واجباً وهو ان يعيد تمثيل ماحصل للسيد المسيح في آلامه وموته، فأقرّ بتآمره على تركية، وهو من هذه التهمة بريء، مما أثار غضب الآغا عليه. فرفعه الى الجماهير الحاقدة. فضربوه وأهانوه وأخذوه الى المحاكمة داخل الكنيسة. وهناك بين أروقة بيت الله حكموا عليه بالموت، فاستل باناييوتيس — وهو يمثل يهوذا الخائن — خنجره وطعنه طعنات كثيرة وسال دمه في الكنيسة فأخذ الأب غريغوريس منه ورش على الجمهور وباركهم به، كأني بذلك يجدد مقتل السيد المسيح بعد مضي ألفي سنة.

وعلم الأب فويتس بان مانوليوس بين ايدي الأب غريغوريس وزمرته، فهرع مع بعض اصدقائه لانتشاله من بين ايديهم، ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان فحملوا جثة الشهيد معهم،، بعد ان هدّدهم الآغا بطردهم من القرية. فتجدّد بذلك رحيلهم وتشردهم الطويل. «ومشوا، كما يقول الكاتب، في طريق لانهاية لها نحو الشرق».

فلسفة كازانتزاكي:

يتجلى لنا بوضوح في تضاعيف هذه الرواية تطاحن قوى الشر والخير في العالم: وكلٌّ منها يستعمل طرقه الخاصة. فقوى الخير تحارب بسلاح المحبة والتسامح والتضحية، بينما لاتقارع قوى الشر إلا بالضغينة والحسد والقتل. وتتجلى لنا فكرة الخير بكل صفاتها في شخصية مانوليوس الراعي الذي وهب نفسه للشنق في سبيل سكان القرية، وفي شخصية ميشليس الذي وزع ثروته على المشردين الجائعين، وفي شخصية الأب فوتيس عملاق المحبة والنضال في سبيل أبناء رعيته لرفع مكانهم الاجتماعي واقصاء شبح الموت عنهم. وتتجلى لنا هذه الفكرة ايضاً في كاترينا الارملة العاهر التي تركت طريق العهر وقدمت نفسها للموت في سبيل سكان القرية، فكانت كمريم المجدلية التي اصبحت كثيراً في فجورها وتضحيتها.

اما قوى الشر فيعبر عنها الأب غريغوريس تعبيراً صافياً. فكأني به لايستطيع ان يصنع الخير للخير، لأن مصالحه الخاصة تطغى على كل شيء. فهو مملوء جشعاً اذ يحاول بشتى الطرق، حلالها وحرامها، ان يوسع ثروته، ولو على حساب المعوزين والمشردين. وهو ايضاً محب للتسلط والسيطرة، لذلك طرد الاب فوتيس وجماعته خوفاً من ضياع سطوته بين سكان رعيته. زد على ذلك ايضاً انه متواطىء على الاخلاق، اذ سعى لايجاد علاقات مشبوهة بين خادم الآغا ابراهيماكي وبين احدى بنات القرية، بعد ان نال معونة من الآغا لطرد المشردين. وعدا عن ذلك فانه عنيد ومصرّ على بقائه في الشر اذ يقول عن نفسه: « انني انسان محكوم عليه؛ فقد ضربني الله ضربة قاصمة. بيد انني لا استطيع البتة ان اتوب واندم، ولا استطيع ان اصفح عن احد.» فكأني بقوى الشر كلها قد تضافرت وتآزرت لتجعل منه فارسها العنيد الاصيل. وتتجلّى لنا قوى الشر ايضاً في شخصية باناليوتيس الملقب بآكل الجبصين والذي

كرس حياته للانتقام من مانوليوس ، لان هذا قد ردّ كاترينا عن طريقها الفاسق فامتنعت بعدها عن اسلام نفسها لنزوات باناثيوس .

وفي هذه الرواية تتجلى فلسفة القدر بواقعها الرهيب الذي يهيمن على معظم الاشخاص . وهذه الفكرة متعمدة عند كازانتزاكي الذي شاء ان يضع عنواناً آخر لروايته هو: « الذي يجب ان يموت » . فكأني بالموت على غرار المسيح واقع حتمي يخيّم ظله على حياة مانوليوس الراعي . وهذا لايعني أن كاتبنا ينكر الحرية البشرية بسموها واختيارها ، بل يرى ان قوة الله تهيمن على البشر ، لا بصورة آلية ، بل بشكل سري تمتزج فيه حياة الله بحياة الناس . فيسير بعضهم على غرار المسيح في حياته على الارض ويتعذبون نظيره ويموتون مثله ظلماً واستبداداً .

ومما لاشك فيه ان كاتبنا ظلّ محافظاً في روايته على النزعة الشرقية التي تعترف بتدخل القوة الإلهية في حياة البشر . ولم ينجرف في تيار العقلانيين المفرطين الذين تنكّر بعضهم لوجود الله . فان صح التعبير ، كاتبنا كاتب وجودي – وان لم يكن فيلسوفاً وجودياً بكل ما لهذه الكلمة من معنى – ينظر الى الحياة نظرة واقعية تشمل عناصر شتى من دين واجتماع وعيش يومي .

اشتراكية كازانتزاكي :

ان كازانتزاكي كاتب اشتراكي اصيل ، لايخشى ان يظهر فكرته في كل فرصة سانحة ، ولا تخلو روايته هذه من بعض الافكار الاشتراكية . ويعبّر الاب فوتيس عن الاشتراكية تعبيراً جلياً نابضاً بالحيوية والايمان ، اذ يقول : « نودّ يا الله ان نبني قريتنا الجديدة على أسس جديدة يزول فيها الظلم الاجتماعي ؛ فإما ان يجوع الجميع ويتعرضوا لغوائل البرد معاً واما ان ينالوا قوتهم وكساءهم معاً . أليس من الممكن ، يا الله ، ان تهيمن العدالة على العالم ؟ » (ص ١٨٤) .

ويضيف قائلاً للمشردين: « سيكون الآن كل شيء بيننا مشتركاً. ولن يوجد بيننا ماهو لك وماهو لي، وتزول الحواجز والمغاليق والصناديق المالية، ويشتغل الجميع في ربوعنا ويأكلون على شبعهم، ويعمل كل فرد حسب طاقته. فاننا جميعاً اخوة، أليس كذلك؟ ونؤلف اسرة واحدة ولنا أب واحد هو الله » (ص ١٨٥ — ١٨٦).

ويظهر لنا كازانتزاكي ايضاً مقاومة الرأسمالية لفكرة الاشتراكية ومآخذهم الخاطئة عليها، فيقول باترياركاس لمانوليوس الذي كلّمه عن الاشتراكية: «حسب رأيك، يجب ان يزول الأغنياء. ولكن، ايها الاحمق، اذا زال الاغنياء، فمن يعطي الصدقات للفقراء؟... أنحن « اخوة »، كما تقول ولماذا؟ لكي تنهبونا تعف أموالنا؟ فمن الذي لقنك هذه السخافات ايها الاحمق؟ فيجيب مانوليوس: « المسيح ». ويردف الغني: « أي مسيح، أيها الغرّ، مسيحك وليس مسيحي، فانكم قد صغتم على صورتكم مسيحاً جائعاً عفناً ثائراً، ووضعتم تحت لسانه أقوالاً لاتتناسب مع مصالحكم » (ص ٢٣٤).

ومما لاشك فيه ان الاشتراكية في نظر كاتبنا افضل حلّ لتسوية المشاكل الاجتماعية التي يتعرّض لها البشر في كل مكان.

نقد حياة الاقطاع:

وكان على كازانتزاكي الكاتب الاشتراكي، أن لا يغفل عن امراض بيئته المزمنة، والتي تتجلى بوضوح في حياة الاقطاع المتحكم في اكثر البلدان الشرقية في مطلع القرن الحاضر. فصور لنا هذا الاقطاع بأبشع مظاهره في شخص الآغا التركي الذي كان يحكم قرية ليكوفريسي. وخط لنا بوضوح حياة البذخ والميوعة التي كان يزاولها هذا الآغا. فاذا هو ابداً في سكرة لاحتسائه المشروبات الروحية سراً وعلناً. هذا بالاضافة الى حياة العهر والانحطاط الخلقي اللتين كان يزاولها.

وعدا عن ذلك يتمتع الآغا بسلطة مطلقة لا تعرف التحفظ، فيحكم بالسجن والتعذيب والشنق بدون محاكمة او دفاع عن النفس. فعلى إثر نوبة غضبية نراه يقتل الارملة كاترينا ويطعنها بخنجره طعناً وحشياً. كما نراه محل الذعر والهلع في نفوس مرؤوسيه لدى مقتل خادمه يوسوفاكي.

وعلاوة على ذلك نرى كازانتزاكي يضع أمامنا مقارنة واضحة بين حياة الفقر والحرمان التي يحياها معظم القرويين، وبين حياة الغنى والترف والبذخ والرخاء التي ينعم بها الاغا. فيرسم لنا بكل وضوح لوحة البؤس والشقاء التي تخيم على المشردين الجائعين، وصورة العوز والحرمان المهيمنة على الرعاة وبعض القرويين. ولا جرم أن كاتبنا قد عمد الى هذه المقارنات، يعبّر لنا بصورة غير مباشرة عن الفوارق الاجتماعية الكبرى التي تميز بين انسان وانسان، فتجعل من هذا رباً وسيداً، ومن ذاك عبداً حقيراً ذليلاً.

قوة الفكرة الدينية عند كازانتزاكي:

لقد تجلت لنا في تضاعيف هذه الرواية فكرة كازانتزاكي التقدمية حول الدين ومفاهيمه. فيرى أن الدين حياة عملية، وليس مجرد افكار خيالية بعيدة عن الواقع الانساني الراهن. وكأني به في ذلك قد التحق بكبار الفلاسفة الوجوديين العصريين الذين تشبثوا بضرورة تطبيق المعطيات الدينية على الوجود الانساني، تتمخض فيها شخصية الانسان وتنتعش. ونخص منهم بالذكر جبرائيل مرسيل ونيقولا بردياييف. ففي نظره يترتب على سكان ليكوفريسي، في وضعهم الديني الراهن، أن يغيثوا المنكوبين المشردين الذين استغاثوا واستجاروا بهم، قبل أن يمارسوا طقوس الدين بصورة آلية نكراء تجردهم من شخصيتهم الانسانية وتجعلهم ينحرفون عن مبادىء الدين السامية التي يجب أن تدفعهم نحو الاحسان والمحبة. ولذلك نرى كازانتزاكي لا يعلق اهمية كبرى على شرائع الدين النظرية وطقوسه، لأنه

انسان عملي ولأن الدين في نظره حياة تربط جميع تصرفات الانسان قاصيها ودانيها، وتدفع حريته نحو الطفرة الوجودية الكبرى القائمة على عمل الخير .

وقد عمد كازانتزاكي كعادته الى اسلوب المقارنة الذي طالما رأيناه يلجأ اليه ليوضح فكرته. فصور لنا كاهنين متميزين رأساً على عقب . احدهمـــا هو الأب غريغورسين، بجشعه ونهمه وحقده وظلمه وشهوته العارمة لرؤية الدماء ؛ وثانيها الأب فوتيس بتضحيتــه واخلاصه وورعه وقداسته وجرأته على اظهار الحق ودحض الباطل .

وبالاضافة الى هذا نرى كازانتزاكي يضع كلمات انجيلية مأثورة على لسان الأب غريغوريس ، وتدل على أن ناطقها بعيد كل البعد عن فهم معناها الأصيل ، لأن تصرفه الحياتي يتناقض مع مضمون هذه الكلمات السامية . وفي ذلك تشويه فاضح وصريح لجريمة الأخـــذ بقشور الدين والتعلق بظاهره الخارجية الخداعة ، دون اكتناه سر الدين وفهم روحه وجوهره .

وتوقف كاتبنا بصورة خاصة على وصف البذخ الاسقفي ، بأسلوب ملؤه التهكم والنقد ؛ كيف لا وكازانتزاكي رسول الاشتراكية البناءة التي دفعه إلى الذود عن حقـــوق الفقراء والكادحين والحد من جشع الانتهازيين والاقطاعيين في شتى المجالات،دينية كانت أم علمانية .

أما الصورة الايجابية التي يرسمها لنا كازانتزاكي عن أصول الدين ، فقـــد استوحى خطوطها من شخصية المسيح الخالدة التي أثرت فيه ايما تأثير وهيمنت على فكره وحياته وكيانه كله . فكأني به بعين يرى المسيح في حياته الفقيرة الطافحة بأعمال البر والرحمة ، ويرسم لنا بالعين الاخرى تشويه هذه الصورة عبر العصور من جراء الانانية والجشـــع البشريين. ومما لا ريب فيه أن كازانتزاكي شخصية دينية عميقة الاصول لا تعرف التزمت والتعصب ، بل تريد ديناً سمحاً

سامياً يهيمن على الكيان البشري بأسره.

وطنية كازانتزاكي :

ان كازانتزاكي هو واحد من أولئك اليونانيين الذين ما زالوا يسعون لاسترجاع أمجاد اليونان التالدة وإعادة الامبراطورية البيزنطية . وكأني به صورة حية لاحلام اليونانيين في استرداد القسطنطينية . فنراه يصور لنا مظالم الاتراك المسيطرين وتنكيلهم بحرمات الشعب اليوناني الاجتماعية والحضارية والدينية . ولذا نشعر بأن حميته الوطنية متأصلة ، بدون أن تفقد توازنها البتة .

فكرة كازانتزاكي الاجتماعية :

لقد صور لنا كازانتزاكي البيئة التي يحيا فيها أشخاص روايته ؛ وذلك بواقعية حقة بعيدة عن الافراط والتفريط . فخط لنا نبل البيئة القروية ، إذ وضع أمام أعيننا وجوهاً ساطعة بالخير والتضحية والمحبة نظير مانوليوس ورفاقه والاب فوتيس . كما أنـــه لم يغفل عن تصوير العيوب التي تسيطر على البيئة القروية . فوصف لنا بكل واقعية كيف اغتصب نيكوليوس الراعي لينيو خطيبة سيده ، ووصف لنا حياة العهر التي كانت تحياها كاترينا الارملة ، وبين لنا بوضوح سلبية الذهنية الفلاحية وحب بعض أصحابها المفرط للهدوء، ولو على حساب الآخرين . إذ انهم آثروا موت المشردين على الاهتمام بهم ومساعدتهم واقتطاع قسم من أراضيهم الواسعة ليعملوا فيها ويستثمروها .

وفي هذه اللوحات الاجتماعية الناطقة ، بين لنا كازانتزاكي أن معظم اشخاصه يفكرون بحدسهم لا بعقلهم . ولا عجب في ذلك ، اذ ان معظم البيئات البدائية او غير المثقفة بثقافة عالية تتميز عن البيئات المتطورة بطريقة تفكيرها المرتكزة بصورة خاصة على الحدس لا على اسس المنطق العلمية . ولا جرم أن كازانتزاكي قد ابرز لنا هذه الظاهرة بكل جلاء ، فأتت افكار اشخاصه افكاراً عميقة في بساطتها وحكيمة في عفويتها .

اسلوب كازانتزاكي :

مما ساعد على نشر شهرة كازانتزاكي العالمية ، هو اسلوبه الفريد في الكتابة . وكأني به قد جمع خلاصة الأدب الاغريقي القديم بعظمته وجلاله وأضاف اليه واقعية الأدب المعاصر وابتكاراته الحديثة . فاسلوبه نابض بالحياة في شتى مظاهرها من قوة وضعف وجد وهزل ... وقد احسن كاتبنا ملائمة نوع الاسلوب لكل ظرف بمفرده وأجاد فيه . وعلى هذا تقوم عبقريته ويرتكز فنه . أما الحوار عنده فهو متدفق بالحياة لا يعرف الفتور والملل ، بل هو أبداً في وثبة حيوية جبارة منقطعة النظير . ولنسمع على سبيل المثال حوار يناكوس مع حماره العزيز عليه المسمى يوسوفاكي : « عندما أموت ، واذا شاء الله أن يقبلني في نعيمه ، سأقف عندئذ على الباب وأقبل يد الحارس وأقول له : «لدي طلب اود ألا ترفضه لي يابطرس ، وهو أن تدع حماري الصغير يدخل الفردوس أيضاً ، لأننا إذ لم ندخل معاً ، لن أدخل البتة وحدي » . وعندئذ يضحك بطرس ويدغدغ عنقك ويجيب : « ان طلبك قد استجيب ، يايناكوس ، فاعتل عزيزك يوسوفاكي وادخلا معاً ... » ووقتئذ يالسعادة ، فانك ستتنزه في المروج الخصبة بدون أحمال وبدون سرج وتتغذى من ذلك البرسيم الخالد الذي يوازي طوله خطمك كي لا تتعب عنقك متى تناولته . وفي كل صباح تنهق في السماء وتوقظ الملائكة من نومهم ، فيضحكون ويتسلقون على ظهرك ؛ ولكنهم خفيفون كالريشة ، وتطفر أنت بملائكة زرق وحمر وبنفسجيين ... » (ص ٦٤ — ٦٥) .

وقد جمع كازانتزاكي في روايته هذه فنوناً أدبية مختلفة من خطابة وملحمة وهجاء ومدح وغزل ومأساة وملهاة ... مما أدى الى إلتهام الجمهور لروايته بدون أي ملل أو ضجر . وله في كل فن من هذه الفنون مواقف مشهودة رائعة . فيتخيل القارىء مثلاً عندما يسمع قصة تشرد الأب فوتيس ورعيته ، أنه إزاء جو ملحمي

عابق شبيه بجو الإلياذة والانياده أجاد فيه كازانتزاكي وسار فيه على غرار هوميروس وسوفوكليس وأوريبيذوس وسواهم من أساطين الأدب الاغريقي القديم .

ومما لاشك فيه أن كازانتزاكي في هذه الرواية قد أبدع وبلغ شأواً فنياً منقطع النظير ، هذا بالاضافة الى سمو أفكاره وعمقها ، كأني به قد جمع في شخصه في آن واحد شخص الفيلسوف الناضج وشخص الاديب المتمرس . وقد قال عنها الكاتب توماس مان : **«إنها رائعة فنية من الأدب الرفيع»**. وقال الكاتب مرسيل بريون، وهو عضو من الأكاديمية الفرنسية : **«بوسعنا ان نقارن كازانتزاكي في هذه الرواية بكبار شعراء الأدب الأغريقي القديم الذين ماهم إلا إجداده . فان روح هوميروس تنبعث في كتبه المتدفقة بحيوية لاتضاهى»** . وهذا كله قد جعل من كازانتزاكي مفكراً عالمياً معاصراً وأديباً بلغت شهرته جميع أصقاع العالم . وكأني به قد كتب ليكون للفلاسفة والأدباء الاغريق خير خلف لخير سلف .

• التحديات والصمود
• مشكلة التفجر السكاني في ج . ع . م

عرض وتقديم : **هشام الدجاني**

نشرت مجلة «البترول والغاز العربي»(١) مقالاً كبير الأهمية للأستاذ عبد الله الطريقي، الذي يعتبر من المختصين القلائل في الشؤون البترولية العربية، تحت عنوان : **التحديات والصمود** . والمقال يعرض لحلقة جديدة من حلقات التـــآمر والضغط الاستعماريين على مصائرنا ومقدراتنا . والحلقة الجديدة ذات طابع اقتصادي بحت ولكنهــا ذات تأثير بالغ على اقتصادنا . ذلك انها تستهدف قطع مورد من اهم مواردنا، وشريان من اهم شرايينا الاقتصادية وهو : **قناة السويس** .

وفيما يلي خلاصة لبحث الاستاذ الطريقي:

أمام التحديات التي يجابهنا بهـــا الاستعمار والصهيونية لابد من استخدام جميع ما لدينا من امكانات لكسب المعركة . فبعد معركة حزيران المشؤومة ظن الأعداء بأننا قد سلمنا بالأمر الواقع ، ولكن أمتنا اثبتت ان على الأعداء أن يبذلوا جهداً أكبر لتحطيم ارادتنا واخراجنا من المعركة. وقد بدأوا فعلاً معركة جديدة تهدف الى اعجازنا والقضاء على امكاناتنا ومواردنا الاقتصادية. وضرب معامل التكرير في السويس ان هو الا جزء من هذه المعركة. اما الجزء الآخر فهو محاولة الاقلال من اهمية قناة السويس وذلك عن طريق بناء ناقلات

(١) مجلة البترول والغاز العربي – بيروت – عدد تشرين أول (اكتوبر)–١٩٦٧– ص ٤

كبيرة تستطيع نقل البترول الى اوروبا بدون المرور بالقناة .

قناة السويس :

تمر عن طريق قناة السويس ١٦٪ من تجارة العالم . ويشكل البترول ٨٠٪ من هذه الكميات . وطريق قناة السويس هو أقصر طريق بحري لنقل البترول من الخليج العربي الى أوروبا .

والاستعمار يريد حرمان العرب من اي سلاح قد يستعمل لعرقلة مخططاتهم او يؤثر على مصالحهم . وقد رأينا كيف ان اغلاق قنـــاة السويس ، نتيجة للاعتداء الصهيوني والانكلو امريكي ، قد اثر على اقتصاديات اوروبا . وقدرت خسائر دول اوروبا بما يعادل ٩٠٠ مليون جنيه استرليني في عام واحد ، وذلك نتيجة لتوقف العمل في بعض الموانىء ، وتخلف التصدير ، وازدياد اجور النقل . . والآن نجد بريطانيا تشكو مر الشكوى من استمرار اغلاق هذا الممر المائي . وتطالب بفتح القناة لأن بريطانيا تخسر ما يعادل ١٤٠ مليون جنيه استرليني في العام الواحد . وقد احسنت الجمهورية العربية المتحدة باصرارها على عدم البدء في فتح القناة قبل الجلاء التام عن جميع الاراضي العربية .

تعتبر شركات البترول من اهم اسلحة الاستعمار في المنطقة . وهذه الشركات لديها من القدرة والقوة ما يجعلها أداة فعالة للاضرار باقتصادياتنا . **وقد لجأت هذه الشركات مؤخراً الى بناء ناقلات النفط الكبيرة التي لا تمر بقناة السويس وتسعى هذه الشركات بهذه الخطوة الى تحقيق هدفين : اولهما ان تخلص نفسها من المضايقات والخسائر التي يسببها كل غزو يهودي للاراضي العربية ، وثانيهما : حرمان مصر من مصدر هام من مصادر العملات الصعبة .**

وقد بدأت هـــذه الشركات منذ الغزو الاول لقناة السويس في عام ١٩٥٦ باللجوء الى بناء الناقلات الكبيرة التي تستطيع ان تنقل البترول العربي من الخليج العربي الى أوروبا وامريكا مروراً برأس الرجاء الصالح بدلاً من المرور بقناة السويس . وقد بلغ عدد الناقلات الـــتي تبنى حالياً في اليابان وحدها — والتي تزيد حمولة الواحدة منها على ١٥٠ الف طن — ٦٠ ناقلة . فاذا أضفنا الناقلات التي اتفقت على بنائها شركة أسو (Esso) في اوروبا ، والتي تبلغ حمولة كل واحدة منها ٢٤٠ الف طن ، فان اسطول الناقلات التي لا تستطيع المرور بقناة السويس سيصبح كافياً لنقل كل ما تحتاجه اوروبا من بترول الخليج العربي بدون المرور بقناة السويس ، وبتكاليف أقل من التكاليف الحالية للناقلات التي تستطيع المرور بقناة السويس والتي تستطيع ان تنقل ثمانين الف طن . **وقد قدر ان الناقلات الجديدة التي حمولتها ٢٤٠ الف طن ستكون قادرة على نقل البترول من الخليج العربي الى اوروبا بوفر ٣٠٪ من اجور النقل اذا ابحرت محملة عن طريق رأس الرجاء الصالح ، مستعملة**

القناة في العودة فارغـة . أما اذا استخدمت طريق رأس الرجاء الصالح في الذهاب والعودة فان التوفير يصبح حوالي ٢٠٪ أقل مما يدفع اجور الشحن اذا استخدمت ناقلة حمولتها ٨٠ الف طن مستعملة قناة السويس ذهاباً وإياباً .

ان اعداءنا مصممون على جعلنا نركع مستسلمين . فهم قد هزمونا عسكرياً ، وهاهم يحاولون اذلالنا اقتصادياً . وعلينا ان نواجه كافة التحديات بتخطيط علمي .

ان قناة السويس ستخسر كثيراً من دخلها الذي كان متوسطه ٨٠ مليون جنيه استرليني في العام نتيجة لوجود هذه الناقلات الكبيرة . وفيما يلي بيان باسطول الناقلات الكبيرة التي تستخدم الآن ، والناقلات التي تبنى لحساب شركات النفط . ومن هذا البيان نستدل على ان اعداءنا يستطيعون ، اذا ما اصروا على استخدام الناقلات الكبيرة ، جعل قناة السويس مجرد ممر لنقل البضائع الصلبة مع نقل كميات صغيرة من البترول .

بيان بعدد الناقلات التي تزيد حمولة الواحدة منها عن ١٥٠ ألف طن وبعدد الناقلات التي تبنى حالياً لحساب شركات النفط

اسم الشركة	الناقلات التي تبنى لحساب شركات النفط		الناقلات التي تبنى وسوف تؤجر لشركات النفط		العدد الكلي للناقلات	مجموع الحمولة بالطن
	العدد	الحمولة الاجمالية بالطن	العدد	الحمولة الاجمالية بالطن		
شل	٢٢	٤،٥٠٠،٠٠٠	٧	١،٥٠٠،٠٠٠	٢٩	٥،٩٠٠،٠٠٠
إسو	١٨	٤،٠٠٠،٠٠٠	—	—	١٨	٤،٠٠٠،٠٠٠
الشركة البريطانية للبترول	٣	٦٠٠،٠٠٠	١٣	٢،٦٠٠،٠٠٠	١٦	٣،٢٠٠،٠٠٠
ستاندرد كاليفورنيا	٦	١،٣٠٠،٠٠٠	—	—	٦	١،٣٠٠،٠٠٠
سوكوني	٢	٤٠٠،٠٠٠	٣	٦٠٠،٠٠٠	٥	١،٠٠٠،٠٠٠
تكساكو	٣	٦٠٠،٠٠٠	٢	٤٠٠،٠٠٠	٥	١،٠٠٠،٠٠٠
كالتكس (ايطاليا — فرنسا)	٦	١،٢٥٠،٠٠٠	٦	١،٢٥٠،٠٠٠	١٢	٢،٥٠٠،٠٠٠
شركات يابانية	٣	٦٠٠،٠٠٠	١٦	٣،٠٥٠،٠٠٠	١٩	٣،٦٥٠،٠٠٠
جالف	—	—	٦	١،٩٠٠،٠٠٠	٦	١،٩٠٠،٠٠٠
شركات مستقلة	—		٥٥	١١،٢٠٠،٠٠٠	٥٥	١١،٢٠٠،٠٠٠
المجموع	٦٣	١٣،٢٥٠،٠٠٠	١٠٨	٢٢،٤٠٠،٠٠٠	١٧١	٣٥،٦٥٠،٠٠٠

بيان بعدد الناقلات العاملة حالياً والتي تزيد حمولة الواحدة منها على ٧٠ ألف طن ، ومجموع هذه الحمولة حتى ٣١ كانون الأول ١٩٦٦

عدد الناقلات	حمولة الناقلة بالطن	حمولتها الاجمالية بالطن
٤٤	٨٠،٠٠٠ — ٩٠،٠٠٠	٣،٧٣٩،٦٩٥
٤٢	٩٠،٠٠٠ — ١٠٠،٠٠٠	٣،٩٠٥،١٣٢
٢٩	١٠٠،٠٠٠ — ١٢٥،٠٠٠	٣،٢٥٧،٥٩٥
٥	١٢٥،٠٠٠ — ١٥٠،٠٠٠	٧١٨،٦٢٢
٢	أكثر من ١٥٠،٠٠٠	٣٦٢،٤٠٠
١٢٢		١١،٩٨٣،٤٤٤

تأخذ اوروبا من الخليج العربي سنوياً حوالي ٢٣٥ مليون طن من النفط الخام . وتستطيع هذه الناقلات نقل حوالي ٣٠٠ مليون طن سنوياً . وهكذا تراهم يستطيعون الاستغناء نهائياً عن القناة متى أرادوا .

فما هو الرد على هذا التحدي ؟

ان الرد على هذا التحدي في نظرنا هو بناء خطوط للأنابيب من الخليج العربي الى سواحل سوريا ولبنان بحيث تكون تكلفة نقل البترول الأبيض من الخليج الى البحر الواحد المتوسط اقل كلفة من نقله بالناقلات الكبيرة ، وبهذا تضطر الناقلات الكبيرة الى أخذ البترول من سواحل البحر الأبيض بدلاً من الدوران حول افريقيا . وبذلك نكون قد خلقنا صناعة كبيرة للأنابيب في البلاد العربية التي تقوم فيها صناعة الصلب (مصر والجزائر) وهيأنا آلاف الوظائف للعمال العرب في منطقة الخليج والاردن والعراق وسوريا ولبنان ، بالاضافة الى ماستكسبه الدول العربية من واردات العوائد عن الخطوط التي تمر في أراضيها .

إن بناء خطوط الانابيب هذه سيزيد من قوة التفاوض العربي حيال الشركات والمستهلكين ، لأن هذه الخطوط ستحفظ كميات كبيرة من البترول على الأرض العربية بدلاً من

خزنها بالناقلات التي تنقلها الى الخارج. كما أن المشروع سيحقق مصادر جديدة للدخل. بالاضافة الى أن صناعة الصلب في مصر والجزائر ستتسع وتزدهر. ويمكن تمويل المشروع من صندوق التنمية العربية ومن الخارج. اذ أن كثيراً من الدول الصناعية الكبرى تتلهف لبيع الأنابيب مقابل أن تأخذ نفطاً خاماً.

وايران تضرب لنا أحسن الأمثلة في هذا المجال. فقد اتفقت حكومتها مع حكومة الاتحاد السوفيتي على نقل الغاز بالأنابيب من جنوب ايران الى جنوب الاتحاد السوفيتي، على أن تقوم الحكومتان بتمويل الخط وبنائه. ويدفع الاتحاد السوفيتي ثمن الغاز الايراني مصانع تقام في ايران. وقد تقرر بموجب الاتفاق الذي تم بين الدولتين أن تصنع ايران مليون طن من الأنابيب من أصل مجموع الأنابيب اللازمة للخط والتي يبلغ وزنها حوالي مليون ونصف طن. وستقام مصانع خاصة في ايران لهذا الغرض.

ولا شك ان بناء خطوط الأنابيب العربية - التي تنقل البترول بدلاً من أن تنقله الناقلات الكبيرة التي لا تمر في قناة السويس - سيجعلنا نواجه التحدي بطريقة عملية ومنطقية. وفي الوقت نفسه تستطيع ج.ع.م أن تساهم في هذه الخطوط بما يعوضها عما تخسره من نقص في عائدات القناة.

* • *

ومن المجلات العربية ايضاً اخترنا تلخيص بحث اجتماعي اقتصادي لمشكلة تزداد حدتها في الجمهورية العربية المتحدة، ونعني بها المشكلة الديموغرافية أو المشكلة السكانية. عنوان البحث هو: **مشكلة التفجر السكاني في ج.ع.م. وقد نشر في مجلة «الفكر المعاصر [1]» بقلم الاستاذ محفوظ أحمد محمد.**

إن المشكلة السكانية في القطر المصري أصبحت تحتل في السنوات الأخيرة صفحات وافية في الكتب والمجلات. كما لقيت اهتماماً واسعاً من قبل دوائر التخطيط الاجتماعي الرسمية، ومن قبل المسؤولين عن التوعية بوسائلها المختلفة.

ودراسة الاستاذ محفوظ أحمد التي نقدمها اليوم هي واحدة من هذه الدراسات او الأبحاث التي نشرت أو أذيعت أو عقدت حولها ندوات التوعية. ولكن الجديد في هذه الدراسة هي الوسيلة التي يراها الكاتب حلاً لهذه المشكلة المتأزمة.

---

(١) الفكر المعاصر - القاهرة - العدد (٣٣) - تشرين الثاني (نوفمبر) - ١٩٦٧

ما أساس المشكلة ؟ وما أبعادها ؟ كيف تطورت ؟ وأخيراً كيف نتصور حلاً لها ؟

لاجدال في أن زيادة السكان في بلد يعاني الكثير من التخلف الاقتصادي هي مشكلة بالغة التعقيد والصعوبة . والمعروف أن زيادة النسل تسير بسرعة تسبق بطبيعتها سرعة التنمية الاقتصادية . فالأول تدفع اليها غرائز لاتكلف مالاً أوخبرة ، والثانية تحتاج الى رؤوس أموال لاتنتهي ، وتحتاج الى خبرة فنية وثروات طبيعية ... الخ . لذا فان الأمم التي آمنت بضبط النسل واقتنعت به اسلوباً ضرورياً لحماية المستوى المعاشي تجني الآن ثمرات التنمية في يسر وطمأنينة ، وتقوم باستغلال ثرواتها ومواردها على صور تفوق أحجام الاستهلاك .

ويبدو الأمر على العكس تماماً بالنسبة للدول المتخلفة ، أوالحديثة الاستقلال مثل الهند وباكستان والصين واندونيسيا وبعض دول أمريكا اللاتينية و ج.ع.م . ففي هذه الدول تشكل زيادة النسل أمراً بالغ الخطورة على كيانها الاجتماعي . بيد أن جانباً من هذه الدول قد سبقنا لممارسة ضبط النسل على مستوى الدولة الحديثة .

وفي الجمهورية العربية المتحدة بلغ تعداد السكان الأخير ٣٠ مليوناً . ويزداد هذا الرقم بأكثر من مليون نسمة كل عام . فاذا عرفنا أن مستوى المعيشة المنخفض مصحوباً بالضرورة بالتفكير المغلق المتخلف يغريان بمزيد من المواليد بغير مبالاة ، واذا أضفنا أن المرأة المصرية تملك أعلى نسبة من الخصوبة التناسلية ، أمكن على ضوء هذه الحقائق أن ندرك الى أي مدى يمكن أن تسوقنا اليه زيادة النسل في البلاد حين تصبح قوة عاتية تقتلع أمامها كل المجهودات التي تبذل لزيادة الانتاج وانمائه .

وامكانات مصر من الأرض الزراعية ، كما هو معروف ، لاتتجاوز ٦ ملايين فدان ، يُروى منها ثلاثة أرباع المليون فدان رياً حياضياً نظراً لانعدام الوسائل الفنية للاحتفاظ بماء الفيضان . والسد العالي سيحول هذه النسبة من الارض التي تروى حياضياً الى ري دائم ، بالاضافة الى انتزاع مليون فدان جديد من الصحراء . ومن المفيد ان نذكر ان هذا المليون الجديد يحتاج بدوره الى ٣٠٠ مليون جنيه للحصول على الأدوات والأسمدة والخبرات الفنية . وهكذا تبدو اعباء التنمية عسيرة مضنية ، وليست كما يتصورها بعضهم بهذه البساطة .. أي بمجرد استكمال بناء السد .

ونظراً لضيق الرقعة الزراعية وعجزها عن توفير حاجات السكان الضرورية من المواد الغذائية كالقمح والذرة تضطر الدولة لشراء كميات كبيرة من هذه المواد كل عام بملايين العملات الصعبة قابلة بدورها للزيادة نظراً لزيادة النسل المطردة .

وفي مجال الصناعة . . ان الصناعة لدينا لازالت وليدة ناشئة ، ولازلنا نحبو مع طريق

الصناعة الثقيلة، التي يتطلب استكمال وجودها مخزون ضخم من الأموال والخامات والخبرات. وقد عملت الدولة جهدها من أجل تدعيم الانتاج الصناعي وزيادة فرص العمل ورفع مستوى المعيشة . **ولكن زيادة السكان المستمرة بمعدلات فاقت المعدلات المحلية السابقة ومعدلات الدول الأخرى التي تعاني من اكتظاظ السكان ، كالصين والهند ، تمتص خيرات الانتاج بشقيه الزراعي والصناعي أولاً بأول .** فلا تكاد تمتص من انياب الاستهلاك المتزايد شيئاً يمكننا من الدخول في عصر الصناعة الثقيلة ، وهي المرحلة الضرورية لتثبيت دعائم الانتاج .

وفيا يتصل بقوى الانتاج البشرية فقد تأثرت بدورها بزيادة النسل المستمرة تأثراً كبيراً . اذ يشكل ازدياد عدد افراد الأسرة الواحدة عبئاً على رب الاسرة وهو العنصر المنتج الوحيد الذي يتحمل عادة مسؤوليات الانفاق عليها .

كذلك فان زيادة النسل المطردة قد أوجدت قطاعاً ضخماً من الأعمار المتقاربة (من فترة الميلاد حتى سن الخامسة عشرة) . ويشكل هؤلاء ٥٠٪ من عدد السكان في الجمهورية . وهذه الملايين الخمسة عشر تعتبر بالضرورة قوة بشرية غير منتجة تعيش عالة على غيرها. وبالاضافة الى هذه الملايين ، توجد ملايين أخرى لاتستطيع ان تنتج لاعتبارات كثيرة كالشيخوخة او المرض او العجز . وهناك ملايين اخرى يقل انتاجها لدرجة كبيرة بسبب الأمراض المتوطنة التي تنتشر في الريف المصري كالبلهارسيا والانكلستوما والبلاجرا وامراض سوء التغذية. هذا بالاضافة الى البطالة المقنعة التي يقوم اصحابها بممارسة اعمال تافهة تعجز من حيث دخولها عن تحقيق الحد الأدنى من المعيشة الذي يليق بكرامة الانسان . كما يمكن ان نعتبر الأعمال الموسمية (الأعمال الزراعية في الريف المصري) نوعاً من البطالة المقنعة .

نخلص من هذا الى ان القوى البشرية التي خلصت لها الخبرة والقدرة على العمل لاتتجاوز بحال ربع السكان ، وهي التي تتحمل وحدها عبء التنمية والتطوير وزيادة الانتاج .

زيادة النسل ومستوى الخدمات :

ليس من شك ان تأثير زيادة النسل المطردة على مستوى الانتاج يضغط بدوره على مستوى الخدمات ويؤثر فيها تأثيراً سيئاً .

من ذلك مثلا انخفاض مستوى الخدمات الطبية ، وانخفاض مستوى التعليم بعد ان دفعت زيادة النسل المستمرة الى العمل في التعليم على مستوى الكم لا الكيف . وقد تجاوزت الزيادة في عدد الاطفال الذين بلغوا سن الالتزام قدرة الدولة المادية على بناء المدارس واعداد الوسائل التعليمية المختلفة .

ونستطيع بعد ذلك ان نقرر بحق ان زيادة السكان في الجمهورية هي المسؤولة الاولى عن الغلاء السريع الملحوظ وضآلة المرتبات بالقياس الى مثيلاتها في معظم بلاد العالم، ومسؤولة عن زيادة الاستهلاك، وضعف قوة النقد الشرائية، وحدوث الازمات التموينية. هذا بالاضافة إلى أزمة السكن المستحكمة.

والحق ان ما صادف الدولة من عقبات في سبيل تجديد خطة التنمية الثانية قد زاد من اهتمام الدولة بخط ضبط النسل حتى لا تفشل الخطة.

وتنطبق القاعدة القائلة بأن الحضارة تصنع الحضارة، وان التخلف يصنع التخلف، على الريف المصري بوضوح، اذ نجد المجتمع الريفي في بلادنا، حيث يوجد ملايين الاسر التي يتراوح عدد افرادها بين ٧-١٥ شخصاً، بينما لا يزيد دخل الاسرة عن جنيهين ونصف جنيه شهرياً، يعيش في اواخر القرن العشرين حالة من التخلف الاجتماعي يزيدها تدفق النسل سوءاً فوق سوء. لذا فان امام القيادة الاشتراكية اشواطاً بعيدة للوصول بالقرية المصرية، وهي الوجه الحقيقي للمجتمع المصري، الى المستوى الحضاري الذي ينسجم مع مستوى الحياة في المجتمعات الريفية في الدول الناهضة. وتحقيق هذا الهدف الكبير رهن بنجاح خطة ضبط النسل.

ومع تقديرنا لدور التوعية الأساسي في هذا المجال فاننا نرى أن التوعية الشفوية وحدها امام ملايين العقول ستصبح سلاحاً عاجزاً في معركة ضخمة تحتاج الى تكتيل كل الجهود. فالملاحظ ان التوعية الكلامية المباشرة تلقى من الجماهير الغارقة في لجة التقاليد - وخاصة في المجتمع الريفي، أشد الصعاب.

وقد يقول قائل ان هذه المأساة لابد وان تدفع الدولة الى اسلوب جديد من اساليب العمل، وليس على الدولة جناح فيما تبتغي من تشريعات حاسمة تفرضها ضرورات هذه الفترة من تاريخ التطور الاجتماعي المصري فرضاً لا خلاص منه، بوصفها - أي هذه التشريعات - وسيلة فعالة من وسائل تحقيق العدل الاجتماعي ورفع مستوى الحياة.

ومع هذا فان التشريع المقرون بالتوعية والدعوة العقلية لن يأتي بما نرجوه من نتائج ايجابية في هذا السبيل. ومن ثم يصبح السد العالي، كأسلوب فعال من أساليب المعركة الثقافية لضبط النسل، هو الأمل المرتقب للقضاء على مشكلات زيادة السكان عن طريق الوعي الحضاري السريع. ولا شك ان دور التوعية في ضبط النسل - عن طريق اجهزة الاعلام - سوف يكون له اسرع النتائج واوقع الآثار في نفس المواطن العادي حين يرتبط هذا العمل الثقافي بتغييرات اجتماعية حضارية تطور جوهر الحياة في المجتمع الريفي المصري.

السد العالي هو الخلاص :

يرى المؤلف ان السد العالي هو الحل الأمثل لهذه المشكلة المستعصية. وكاتب المقال لا ينظر الى السد العالي على انه اضخم مشاريع التنمية، وانه السبيل الى زيادة الدخل واستيعاب

أعداد هائلة من اليد العاملة . وإنما هو ينظر الى السد العالي نظرة جديدة .. ينظر اليه على أنه وسيلة حضارية هائلة . فأهمية السد العالي – في رأي الكاتب – لاتكمن في اعتبـاره بحيرة ضخمة تختزن المياه وتضيف مساحة جديدة الى الرقعة الزراعية . اذ ماذا يمكن ان يفعل مليون فدان جديد امام هذه الملايين من البشر التي تتدفق في كل عام بغير حدود؟.

الحق أنه اذا اقتصرت ثمار السد العالي على هذه النتيجة وحدها لسهل على زيادة النسل ان تحول السد العالي الذي بذلنا من اجـله الكثير .. مالاً وجهداً وخبرة وارواحاً . . الى ذكرى..

ولكن قيمة السد العالي الحقيقية ، كسلاح يقهر التخلف ، عملية ايجابية لانجاح خطة ضبط النسل ، تتمثل فيما سيمنحه السد من قـوى كهربية ضخمة هي ، بالاضافـة الى قيمتها الانتاجية ، الوسيلة الوحيدة لتحقيق التطور الحضاري الجذري لحياة القرية المصرية ومجتمعها الريفي . فحين يزود السد العدد الضخم من القرى (اكثر من ٤٥٠٠ قرية) بنور الكهرباء ، ستنتقل الحياة فيها من ظلمات القرون الوسطى الى اضواء القرن العشرين .

ولاريب ان عقلية مصباح الغاز والنار والجهل والظلام المطبق بعد الغروب، تختلف اختلافاً جوهرياً عن عقلية المواطن الذي يعيش عصر الكهرباء ويستمتع بثمرات المدنية ويتعامل مع المذياع والتلفزيون والثلاجة والسينما والكهرباء والصحف .

بهذه الخطوة الحضارية وحدها يمكن اختصار آلاف المجهودات التي تبذل حالياً في التوعية الكلامية المباشرة، لأن كهرباء السد ستحمل الى هذه القرى اضواء الحضارة والمدنية .وهي ثورة حضارية لها آثارها في تطوير المضمون الثقافي والاجتماعي عند المواطن.

وحين تدخل الصناعات الزراعية ـ بفضل الكهرباء ـ المجتمعات الريفية سوف تغير من ملامح المجتمع الزراعي ، وتطور من طبيعة الحياة والعلاقات الاجتماعية فيه ، اذ توفر لأفراد هذا المجتمع العمل طيلة ايام العام بدلاً من هذه البطالة الاجبارية التي تفرضها طبيعة العمل الزراعي في المجتمع الريفي المصري .

ولاريب ان هذا التغيير الحضاري سيؤثر بدوره على انماط السلوك والعادات وقوالب التفكير ، ويهزها هزاً عنيفاً ليعبر بها مسافات التخلف الطويلة .

ومن شأن هذه المرحلة من مراحل التصنيع الزراعي داخل المجتمع الريفي المصري ان تستقطب كثيراً من وسائل الاتصال الفكرية والخدمات الاعلامية التي تقوم بدور هام في انجاح خطة ضبط النسل .

ذلك اذن هو الانقلاب الحضاري العظيم الذي يعطي السد العالي اجل نتائجه . وتلك هي الوثبة الاجتماعية التاريخيـة التي سوف تمكن لخطة التوعية في ضبط النسل ان تنجح وتؤتي ثمراتها المرجوة .

ترقبوا صدور العدد الخاص من مجلة :

المعرفة

المثقفون العرب أمام قضية فلسطين

يتضمن :

- ندوة ثقافية عربية اشتركت فيها مجموعة من كبار المثقفين في الوطن العربي .
- اسهم في مناقشاتها المفكر الفرنسي الكبير جاك بيرك .
- موضوعات هامة وأساسية يطرحها على نفسه كل مثقف عربي :
- كيف عالج الفكر العربي في الخمسين سنة الماضية موضوع فلسطين ؟
- هل تمكن المثقفون العرب من عرض الحق العربي في فلسطين على مثقفي العالم ؟
- ما هي شروط قيام حوار مثمر بين المثقفين العرب ومثقفي العالم بشأن فلسطين ؟
- ما هو الدور الذي ينبغي أن يؤديه المثقفون العرب تجاه مواطنيهم وتجاه الرأي العام العالمي بشأن فلسطين .

بحوث جديدة - دراسات وافية - مناقشات حية لأكبر موضوع يعيشه العرب بجوارحهم وأفكارهم

عدد خاص بموضوع فلسطين يجب ألا تفوتك قراءته

احجز نسختك منذ الآن

يصدر في أول كانون الثاني ١٩٦٨ عن مجلة المعرفة - مجلة المثقف العربي

مريكي تحت القنابل الأمريكي[1]

بقلم ديفيد شونبرون

ترجمة « المعرفة »

« ان اسم ديفيد شونبرون David Schoenbrun غني عن التعريف والتقديم ؛ لذا فان لشهادته التي نقدمها هنا قوة خاصة. فهو يعتبر في طليعة الصحافيين الأمريكيين، لايتطرق الشك الى ولائه لبلده ، ودخل الى فيتنام الشمالية بدعوة من حكومتها . وقد أدهشه مارآه من تصميم شعب فيتنام ، بدءاً من تلميذ المدرسة الابتدائية وحتى رئيس الوزراء فام فان دونغ ، على الصمود في وجه العدوان الامريكي وتحقيق النصر لفيتنام. وقال الصحافي رأيه لمواطنيه : « ان ابناء فيتنام لن ينهاروا » . وفيا يلي ترجمة لمقاله :

---

(١) عن مجلة فيغارو الأدبية : Un Américain Sous les bombes américaines
Par David Schoenbrun - in - Le Figaro Littéraire № 1124 - 5 novembre 1967

رأينا هانوي تتألق بالأنوار ، وكنا نحلق فوقها ليلا لنصل الى مطار «جيالام» الذي يفصله عن العاصمة النهر الأحمر. كان المنظر مذهلاً. ففي لندن أثناء الغارات عليها في الحرب العالمية الثانية، كان الظلام كثيفاً تاماً. أما هنا، فعلى العكس، كانت الأنوار تجعل من هانوي مدينـــة مفتوحة، تعبّر عن ثقتها بأن الامريكيين لن يغيروا عليها بطائراتهم. وبدأت أحس بشيء من الراحة حين هبطت بنا الطائرة في المطار.

كان هناك موظف ينتظرنا، فقال لنا: «كان أصابتنا اليوم كبيرة. انها اضخم غارة على هانوي منذ الحرب. وقد سقطت قنبلة في وسط المدينة، في شارع هو Hue على مقربة من الفندق الذي ستنزلون فيه.»

كنت واثقاً من أن الأمر مجرد صدفة وليس هو غـــارة مقررة على العاصمة. وكنت أعتقد ان الفيتناميين يتصورون الأمر كذلك، اذ لو كان غير ذلك لتوجب عليهم أن يطفئوا الأنوار، وناقشت الموضوع مع موظفي المطـار. وكانت تلك اول مناقشة لي مع الفيتناميين عن الحرب الجوية.

انتظرنا اربع ساعات في المطار، في جو حار خانق، وصول الموظفين المكلفين باستقبالنا، لقد تعثر هؤلاء وهم في منتصف النهر الأحمر، اذ غرز زورقهم في كتلة رملية. ووصلوا اخيراً بعد منتصف الليل مبللين، يحمـــلون باقتين من الياسمين وازهار اللوتس، احداهما لي والأخرى لزوجتي. لقـد قضيت عشرين سنة وأنا مراسل حربي، لم يقدم لي خلالها احد، قبل الآن، ازهاراً. وضحكت وزوجتي، وظن مضيفونا اننا مأفونان.

طلب الينا ان نترك حقائبنا في المطار وألا نحمل معنا الا أخف متاعنا حملاً، اذ ان اجتياز النهر سيكون صعباً. وهناك نزلنا، ونحن نحمل معنا ازهارنا، والآلات الكاتبة، وحقائبنا الصغيرة. ثم صعدنا الى قارب صغير يجره زورق بخاري، وقال لنا مضيفونا: «هـــذا هو زورق الانتقال في النهر الأحمر. إن لدينا منه

ثلاثة تعمل بصورة دائمة في نقل الاشخاص والمتاع والمؤن من ضفة الى اخرى . ونستطيع بها ان نجتاز النهر بالرغم من تدمير الجسور بالغارات . »

قضينا ساعة في اجتياز النهر . ثم مشينا حوالي نصف ميل حتى وصلنا الى الفندق المخصص لنا، تونغ نات - أي فندق الوحدة . كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل ، وشوارع هانوي مقفرة . وأذكر انني نزلت في الفندق ذاته سنة ١٩٥٤ ، بعد معركة ديان بيان فو ، وكان اسم الفندق آنذاك « متروبول » .
انه يعود الى زمن الاستعمار ، ببنائه القديم ، ودهاليزه الواسعة ، وسقوفه العالية . لقد اصبح الآن عتيقاً ، إلا أنه نظيف نظافة تامة . لم يكن فيه أجهزة لتكييف الهواء ، بل مراوح كهربائية معلقة في سقوف الغرف ، تئز وهي تدور .

لم نمكث طويلاً في السرير . وكان الحر لاهباً . وفي حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحاً جاء مرافقونا الفيتناميون ليأخذوا بنا كي نشاهد التدمير الذي أحدثته الغارة الامريكية في شارع «هو» يوم وصولنا .

كان هذا الشارع شريان العاصمة ، مكتظاً بالسكان والبيوت والحوانيت . وقد سقطت احدى القنابل الامريكية على مجموعة مساكن فيه ، نسفتها من اساسها . وقد أخرجت جثث اكثر من ١٢ قتيلاً من بين الانقاض ، منذ وصولنا الى مكان الحادث ، وتولت العملية فرق الانقاذ ، كما تولت جمع قطع القرميد والأعمدة الخشبية وأنابيب المياه ، فتيات تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والعشرين . كن يلبسن قمصاناً من القطن وسراويل من القماش الأسود ، وقد وضعن على انوفهن قطعاً من القماش لمنع تسرب الغبار الى صدورهن .

وراحت زوجتي تصور المشهد ، بينما أخذت أنا في محادثة الذين نجوا من الغارة . ولما عرفوا أنني وزوجتي امريكيان ،

التفوا حولنا وراحوا يصافحوننا . كانوا يظنون بأننا ننتمي الى احدى منظمات المطالبة بالسلام ، أو احدى محاكم جرائم الحرب . كانوا مسرورين لوجودنا ، اذ ظنوا بأننا قد جئنا نسجل شهاداتهم . قالوا لنا : «ان الشعب الامريكي سيوقف هذا كله ، حين يعرف الحقيقة » . ان الاذاعة والصحافة تكرران كل يوم وجوب التمييز بين حكومة واشنطن وبين الشعب الامريكي . وقد سمعنا ذلك في هانوي ، كما سمعناه في جميع الأرياف التي تجولنا فيها .

ورأينا المنطقة المحيطة بهانوي ، منطقة تبلغ مساحتها اكثر من مائة وخمسين كيلومتراً مربعاً، وقد دمرت تدميراً مريعاً . فمدينة فوبلي Phuly قد دمرت عن بكرة أبيها . وفي مدن نام دينه ، ، نين بينه ، فات ديم ، لم تبق الا بعض الأبنية القائمة . لقد تم نقل اكثر من ثمانية آلاف عائلة من مدينة فات ديم الى مزارع الأرز المجاورة ، التي هي ليست بدورها بمحمية تماماً من الغارات، فالطائرات تأتي مرات عديدة في اليوم ، وتلقي قنابلها وقذائفها فوق هذه المزارع دونما سبب ولا هدف محدد .

وكنا ذات يوم في احدى المزارع القريبة من فات ديم حين حدثت ثلاث غارات عليها ، قتلت اثناءها بقرتان ورجل فصل رأسه عن جسمه . وقد رأيت جسمه ، كما رأيت عائلته تبكيه ، وتجولت في مزرعة الأرز ، فلم أجد فيها مايستحق توجيه الغارات عليها . لم يكن فيها سوى الأرز وبعض الأكواخ . لم يكن فيها أي هدف عسكري . ولما ناقشت وزارة الدفاع الامريكية « البنتاغون » بذلك اعترفت بما أقول .

ورغم الخراب الذي تخلفه الغارات ، ورغم تدمير الجسور بالقنابل ، ورغم القذائف التي تطلق على السكان الآمنين ، فان ابناء فيتنام الشماليين مازالوا يمرون . لقد أصابت الغارات طرق التموين ومرات كثيرة ، ولكنها لم تستطع أن

توقف حركة المرور منها . فما زالت تعجّ بالناس وبالعربات من مختلف الانواع ، وبخاصة العربات التي اخترعها الفيتناميون لتلبي الحاجة الراهنة . فقد أخذوا الدراجة العادية ووضعوا فوق دولابها الخلفي لوحاً من المعدن ، تتدلى من طرفيه سلتّان واسعتان من القش ، تستطيع كل منها أن تستوعب مازنته /٢٥/ كيلو غراماً . أي أن كل دراجة تحمل حوالي ٥٠ كيلو غراماً . وعند الفيتناميين الآن ألوف وألوف من هذه الدراجات التي تجري ليل نهار . ان مثل هذا الجسر من الدراجات هو الذي ساعد الجنرال جياب على ربح معركة ديان بيان فو في الماضي .

* * *

ورغم جميع الجهود التي يبذلها الطيارون الأمريكيون المدربون ، لم تستطع الحرب الجوية ان تبلغ أهدافها الأساسية . انها لم تستطع أن تقطع المواصلات ، ولا أن تعيق قوافل التموين السائرة نحو الجنوب ، وهي لم تجبر هانوي على أن تطلب الصلح أو تذهب الى مائدة المفاوضات . لم تكن لهذه الحرب الجوية من نتيجة بالنسبة لهانوي سوى أنها زادت من أكلاف الحرب ، وتعترف هانوي بذلك ، فالحرب تكلفها أرواحاً بشرية وأعتدة وآلاماً . إلا أنها أكثر أكلافاً لنا نحن الأمريكيين . ان البنتاغون قد اعترف بفقدان حوالي ٦٧٥ طائرة في هذه السنة ١٩٦٧ . وتقول هانوي اننا فقدنا ٢٢٨٠ طائرة . ولو اكتفينا فقط بأخذ أرقام البنتاغون فان ذلك يشكل خسارة كبيرة بالطيارين وبالأموال ، ولو قدرنا قيمة الطائرة بليوني دولار فقط لكان معنى ذلك أن قيمة الطائرات التي فقدناها هذه فوق فيتنام الشمالية تفوق بكثير الميزانية التي خصصها الرئيس جونسون في برنامجه لمكافحة الفقر .

قال لي رئيس الوزراء فام فان دونغ : « يستطيع الأمريكيون ان يقتلوا منا مليون شخص ، او مليونين ، أو ثلاثة

ملايين ، لقد فقدنا نحن مليوني شخص حين تحطمت السدود في بلدنا سنة ١٩٤٥ ، ومع ذلك فقد واصلنا الحرب ضد الفرنسيين طوال تسع سنوات ، حتى بلغنا النصر النهائي في ديان بيان فو . ان طائراتكم لن تتمكن من الفتك بنا كلنا ، نحن الذين نعد ستة عشر مليونا من ابناء فيتنام الشمالية . وبما انها لن تتمكن من ذلك ، فيجب ان يتخلى مواطنوكم عن هذه المهمة ، لأننا ، نحن ، لن نستسلم . ان الأمريكيين لن يتمكنوا منا بالقنابل وليس عندهم مايكفي من الرجال لاحتلال بلدنا » .

لاشك في أن هذا القول ليس فيه أي خديعة أو مبالغة فجميع المعلقين والمراقبين المعروفين الذين التقيت بهم في آسيا وأوروبا يعتقدون بأن هانوي لن تستسلم ولن تصاب بالانهيار . وإنني بعد عشرين عاماً ، راقبتُ خلالها أبناء فيتنام وهم يقاومون الفرنسيين ، ثم يقاومون الأمريكيين ، وفي ضوء تاريخ هذا الشعب المليء بالمقاومة والصمود ، أرى أن الفيتناميين لن يستسلموا . وإذا لم نضع نحن الأمريكيين حداً لغاراتنا ، دون ان نطلب الى الفيتناميين شيئاً مقابل ذلك ، فإن علينا ان نتوقع حرباً طويلة جداً ، بل حرباً لانهاية لها .

وقال لي رئيس الوزراء فام فان دونغ : « يقول جونسون ورامك انهما سواصلان ضغطهما حتى يتمكنا من إكراهنا على الجلوس معهما حول طاولة المفاوضات . انك تستطيع ان تسجل الآن بأننا لن نقبل سلاماً تحت جزمة المعتدي . ان واشنطن لم تقدم حتى الآن عرضاً صادقاً للسلام ، وفي كل مرة عرض الامريكيون مشروع سلام كانوا يزيدون في الوقت ذاته من غاراتهم وعدوانهم ، على الشمال والجنوب معاً » .

واكفهر وجه فام فان دونغ حين قال : « انها جريمة في تضليل الناس . ان السلام ليس لعبة بين أيدي محترفي السياسة . ان السلام هو ماتتطلع اليه بعمق وصدق جميع شعوب العالم . وانني واثق بأن مواطنيكم

أنفسهم يريدون السلام . ولكننا ، نحن ، لن نساوم أبداً ، في سبيل السلام ، على حقنا الأساسي بالسلام . فاستقلالنا ووحدتنا القومية هما في نظرنا مقدسان . لقد كنت أتصور أن يقدر الشعب الامريكي ذلك .

لن نقدم نحن أيّ مقابل تجاه إيقاف الغارات وجميع أعمال الحرب . لن نساوم على ذلك أبداً ، ولن نقدم عنه أي بديل » .

وذكرت لرئيس الحكومة الفيتنامية تصريح السيد دين راسك الذي قال فيه : « وماذا سيفعلون هم اذا نحن أوقفنا الغارات ؟ » .

وأجابني السيد فام فان دونغ بوضوح مابعده وضوح :

« لقد هوجمنا ظلماً وعدواناً . ان الولايات المتحدة هي التي اعتدت على بلادنا ، وعلى الولايات المتحدة اذن أن تقوم بما عليه الحق . واذا اوقفت واشنطن عدوانها ، وقبلت بواقع أنها لاتستطيع أن تستولي على فيتنام ، وأنها لا تستطيع أن تقيم فيها حكماً تابعاً لها ، واذا كانت واشنطن توغب فعلا في السلام ، فان السلام يأتي بأقصى السرعة . . لقد قال رئيسنا المحبوب الرفيق هو شي منه ، اننا سنفرش بالزهور طريق رحيلكم . ليس في نيتنا أن نذل الشعب الامريكي — ولكن عليكم أن تعرفوا بأن بلدنا واحد ، مثلما أن بلدكم واحد ، وأن شعبنا واحد ، له ثقافة واحدة ، وتاريخ واحد ، ولغة واحدة ، وأمان واحدة في الوحدة والاستقلال » .

« واذا كانت الولايات المتحدة ترغب في السلام ، فعليها أن تتناقش مع جبهة التحرير في الجنوب . ونحن لا نعترف ، كما أن الجبهة لاتعترف بعملائكم امثال تيو Thieu وكي Ky . ان الانتخابات التي اجريتموها مؤخراً كانت مهزلة . ونحن نؤيد كل التأييد برنامج جبهة التحرير الوطنية » .

كان فام فان دونغ رئيس الوزراء الحالي هو الذي رأس وفد فيتنام الشمالية الى مؤتمر جنيف الذي وضع حداً للحرب في فيتنام سنة ١٩٥٤ . لذا فهو حين يتحدث

عن الولايات المتحدة ، فانما يلح على ذكر خرقها لنصوص اتفاقية جنيف :

« لقد مزقت الولايات المتحدة تمزيقاً فعلياً هذه الاتفاقيات ، التي نصت على استقلال فيتنام ، ووحدته ، وسيادته على كامل اراضيه .

ولم يكن فيها حديث عن فيتنام شمالية او جنوبية » .

كان السيد فام فان دونغ ، طوال الحديث الذي اجريته معه ، والذي استمر ساعات طوالاً ، لايفتأ يردد بانه من العبث التفكير باقرار السلام ما لم يتم الاعتراف بجبهة التحرير الوطنية الفيتنامية ، وما لم تعقد المحادثات مباشرة معها .

ولقد اعرب الرئيس عن اعجابه بالجبهة اكثر من مرة :

— انني حريص على التأكيد بأن القسم الشمالي من بلادنا قد دافع عنه القسم الجنوبي منها . ونحن نعرف بأن الجنوب لو استسلم لحاول الامريكيون اجتياح الشمال .. ان الجنوب قد بلغ حداً من القوة أصبح معها يوجه ضربات مخيفة للقوات الامريكية والتابعة لها . ويجب ألا ننسى بأن الحرب قد وثقت الروابط بين الشمال والجنوب . اننا سنتوحد حالما تنتهي الحرب ويخرج الغاصبون من أرضنا ، ولن يكون ذلك في وقت بعيد .

● قدمت مطربة الأوبرا المزلية في برلين اليزابيث ايبرت – في المركز الثقافي لألمانية الديمقراطية بدمشق – مقطوعات غنائية لفرانز شوبرت ، غوستاف مالر ، بول كورشاخ ، تشايكوفسكي ، ميميتانا ، بيزيه ، وبوتشيني . كان تعبيرها كافياً لأن يميز من يجهل الألمانية بين الأغاني المرحة والأغاني الحزينة . عزف الألحان على البيانو رودولف دونكل ، الأستاذ في المدرسة العليا للموسيقى (هانس ايسلر) في برلين .

● تحدث الموسيقي النمسوي توماس كريستيان دافيد Thomas Christian David في المركز الثقافي العربي بدمشق باللغة الانكليزية عن بعض المقطوعات العالمية قبل أن يقوم بعزفها على البيانو بصاحبة شقيقه لوكاس Lukas على الكمان . من المقطوعات التي عزفاها (فردوس ماريا تيريزا) .

● اشترك الفنانون التشكيليون العرب والسوفييت في المعرض الذي أقامته جمعية الصداقة العربية السورية – السوفياتية في المركز الثقافي العربي بدمشق.

كانت المواضيع التي عالجها الفنانون السوفييت بأسلوب واقعي – سواء بالرسم أم بالحفر – مواضيع انسانية وفنية وسلمية وحربية . من أجمل اللوحات

السوفيتية لوحة (بربرية) التي تمتاز بالتشريح وتبتعد عن الإعلان ، إذ أنها ترمز الى البربرية بامرأة تحاول إثارة النزعات الحيوانية . كانت اللوحات السورية تمثل اساليب الفنانين اصدق تمثيل: (حلم تدمري) جزء من محاولة الفنان فاتح المدرس الاستفادة من الفن التدمري، (منظر قرية سورية) تمثل أسلوب الفنان ميشيل كرشه الانطباعي ، (سلام وقولاً من رب رحيم) احدى محاولات الفنان محمود حماد في كتابة اللغة العربية بأسلوب تجريدي .

● ندره اليازجي عضو لجنة الفلسفة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق ، توفر طويلاً على دراسة ومتابعة الفلسفة الهندية .

سبق لمجلة (المعرفة) ان نشرت له في العدد / ٤٧ / – كانون الثاني ١٩٦٦ – ترجمة لمقدمة كتاب AS ource Book in Indian Philosophy ، كما نشرت له في العدد / ٥٧ / – تشرين الثاني ١٩٦٦ – عرضاً وتلخيصاً لكتاب The Political Philosophy of Srí Aurobindo (فلسفة أوربندو السياسية) تأليف د. ف. ب. فارما V. P. Varma .

وقد أنجز الاستاذ اليازجي ترجمة كتاب AS ource Book in Indian Philosophy تحت عنوان (الفكر الفلسفي الهندي) ، الذي ألفه بالانكليزية المفكران الهنديان د. سرفابلي راداكرشنا رئيس جمهورية الهند السابق ود. تشارلزمور . يستعرض الكتاب الفلسفة الهندية من (الفيدا) الى الفكر المعاصر . صدر عن دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بدمشق .

● صدرت الحلقة ١٨ من سلسلة (تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات) تحت عنوان (غزليات من الفرات) . أما الحلقة التالية في هذه السلسلة التي يصدرها عبد القادر عياش – عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الأعلى لرعاية الفنون

والآداب بدمشق – فهي (حماسيات من الفرات).

● ألقى المفكر الفرنسي جاك بيرك Jaques Berque في سورية محاضرة باللغة الفرنسية عن (وحدة الحضارات وتعددها) قرر فيها أن كل حضارة تستطيع المحافظة على أصالتها رغم اتصالها بالحضارات الأخرى والشروط التي توحد بين الحضارات. بهذه المحاضرة التي ألقيت في دمشق وحلب، افتتحت وزارة الثقافة موسم ١٩٦٧ – ١٩٦٨.

في ٢ كانون الاول الحالي يتحدث اديب اللجمي في حماة عن قضية فلسطين. وفي ٦ منه يلخص خليل هنداوي في الحسكة تطور الفن القصصي في سورية. في ١٦ تعرض ذكية صوفي في اللاذقية تجارب عالمية ومشاريع عربية لمحو الأمية. في ٢٠ يبين خـالد ماغوط في دير الزور دور الجامعة في البحث العلمي، ويطرح رفيق الصبان في حمص مشاكل السينما العربية. في ٢٧ يلقي يحيى عرودكي في حلب محاضرة عنوانها (التنسيق الصناعي بين البلاد العربية).

في تشرين الثاني الماضي عرض شفيق الصفدي في حلب مشكلة المياه في سورية. وتحدث عادل عبد السلام في دير الزور عن العروبة في الصحراء الكبرى. وبين علي عقلة عرسان في درعا دور المسرح في خدمة القضية القومية والنهضة الاجتماعية. وقدم علي الجندي في طرطوس الشعر العربي في فلسطين المحتلة. وتحدث عزة حسن في السويداء عما نشر وما لم ينشر من تراث العرب الثقافي. وحلل عمر الدقاق في دير الزور أدب النكسة.

المعرفة

عدد خاص

كانون الثاني - يناير ١٩٦٨

المثقفون العرب

أمام

قضية فلسطين

موضوع الساعة، ومحور اهتمام كل
مواطن عربي

**ترقبوا صدوره في
الشهر المقبل**

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى ان يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » (وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي – دمشق) مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي او الجوي وفق الطلب .